# قســـمُ النبي ﷺ
# بـ "الذي نفسُه بيدِه"
# موقِعًا وتأثيرًا
# دراسة في الصحيحين


**د. صبحي إبراهيم عفيفي المليجي**

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

# قســمُ النبي ﷺ بـ "الذي نفسُه بيدِه" موقعًا وتأثيرًا دراسة في الصحيحين.

**صبحي إبراهيم عفيفي المليجي**
**الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية - فرع جامعة الأزهر بالمنوفية- مصر.**
**البريد الإلكتروني:** s.elmelegy@psau.edu.sa

**ملخص البحث:** مما يلفت النظر ويسترعي الانتباه في البيان النبوي الشريف قسمُ الرسولﷺ بالله ﷻ بصيغ كثيرة، فتارة يقسم بصيغة "**والله**"، وتارة يكون قسمه بصيغة "**والذي لا إله غيره**" وتارة ثالثة يكون قسمه بصيغة "**لا ومقلب القلوب**"، كما كان يقسم بصيغة "**وأيم الله**"، ومن الصيغ التي كثر قسمهﷺ بها "**والذي نفسي بيده**"، وكذلك "**والذي نفس محمد بيده**"، وكانﷺ حريصا على أن يكون لكل صيغة من تلك الصيغ المقامُ الذي يناسبها، والآثارُ التي تتركها، والتي لا يمكن أن تحققها صيغة سواها، وذلك من شأنه أن يغري الباحثين ويثيرهم إلى تعرف ذلك والوقوف على أسبابه، وهو ما دفع الدراسة التي بين أيدينا إلى جمع الأحاديث التي وردت فيها صيغتا "**والذي نفسي بيده**"، "**والذي نفس محمد بيده**" من صحيحي البخاري ومسلم، وأن تختار منها واحدا وعشرين حديثا، كانت مادة النظر والتحليل والتأويل والتعليل والمقارنة، وهي روافد المنهج التحليلي، الذي اختارته لنفسها، والذي أوجب عليها بعد اختيار الأحاديث أن تقوم بتقسيمها حسب السياق الذي وردت فيه، وأن تتوقف مع كل حديث منها مبرزة موقع القسم بإحدى الصيغتين، وموضحة الأثر الخاص الذي يترتب عليه، والمعاني التي يُقصد من وراء القسم إلى تأكيدها، أو تصحيحها، أو الحث عليها، أو الترهيب من مخالفتها، مع بيان وجه إيثار القسم بالصيغة التي ورد عليها، وإيضاح الفنون البلاغية التي آزرت القسم في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، لتثبت في الخاتمة أهم النتائج والتوصيات التي انتهت إليها.

**الكلمات المفتاحية:** موقع القسم- تأثيره- العبادات- الغضب لله- تصحيح المفاهيم- الإخبار بالغيب.

# The Prophet swore by “He whose soul is in His hand” signed and influenced by a study in the two Sahihs.

Subhi Ibrahim Afifi Al-Meligy
Assistant Professor in the Department of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Arabic Language - Al-Azhar University Branch in Menoufia - Egypt.
**Email**: s.elmelegy@psau.edu.sa

**Abstract**: What attracts attention and draws attention in the Noble Prophet’s statement, the Messenger’s oath by God in many formulas, sometimes it is divided by the formula “By God,” sometimes its division is in the form “And there is no other god” and at other times its division is in the form “No and the heart of hearts”, as it was He swears by the formula “and im Allah,” and among the formulas that he divided a lot with “and by whom my soul is in his hand”, as well as “by whom Muhammad’s soul is in his hand,” and he was keen to have each of those formulas the standing that suits it, and the effects that it leaves, which cannot be That it be achieved by another formula, and that would tempt researchers and excite them to know that and find out the reasons for it, and this is what prompted the study in our hands to collect the hadiths in which there are two formulas, “and by whom my soul is in his hand,” and by whom Muhammad breathed in his hand, from Sahih Bukhari and Muslim, And to choose from them twenty-one hadiths, the subject of consideration, analysis, interpretation, explanation and comparison, which are the tributaries of the analytical method, which she chose for herself, and which required her after choosing the hadiths to divide them according to the context in which they were mentioned, and to stop with each hadith highlighting the section's location in one of the two formats And clarifying the special effect that it entails, and the meanings that are intended behind The oath to confirm it, correct it, urge it, or intimidate it for contradicting it, with an explanation of the way to give preference to the oath in the form it was received, and clarification of the rhetorical arts that supported the oath in achieving the purpose for which the statement was intended, in order to prove in the conclusion the most important findings and recommendations that it concluded.

**Keywords**: the department's location - its influence - worship - anger to God - correcting concepts - informing the unseen.

بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين،،،

**أما بعد ،،،**

فمما يلفت النظر ويسترعي الانتباه في البيان النبوي الشريف قسمُ الرسولﷺ بالله سبحانه وتعالى بصيغ كثيرة، فتارة يقسم بصيغة "**والله**"، وتارة يكون قسمه بصيغة "**والذي لا إله غيره**" وتارة ثالثة يكون قسمه بصيغة "**لا ومقلب القلوب**"، كما كان يقسم بصيغة "**وأيم الله**"، ومن الصيغ التي كثر قسمهﷺ بها "**والذي نفسي بيده**"، وكذلك "**والذي نفس محمد بيده**"، "ووجه حلفهﷺ ما قاله المهلب: إنما كان يحلف في تضاعيف كلامه وكثير من فتواه تبرعا؛ لنسخ ما كانت الجاهلية عليه من الحلف بآبائهم وآلهتهم وأصنام وغيرها، ليُعرّفهم أن لا محلوف به سوى الله عز وجل، وليتدربوا على ذلك حتى ينسوا ما كانوا عليه من الحلف بغير الله تعالى"(١)، وثم وجه آخر أشار إليه الرازي بقوله: "إنهم كانوا يقولون إن النبيﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب، وهي الكواكب، فكان النبيﷺ يحلف بأمر الله، وإنزال كلامه عليه، وبأشياء مختلفة، وما كان يصيبه عذاب، بل كان كل يوم أرفع شأنا، وأمنع مكانا، فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب"(٢).

وكانﷺ حريصا على أن يكون لكل صيغة من تلك الصيغ المقامُ الذي يناسبها، والآثارُ التي تتركها، والتي لا يمكن أن تحققها صيغة سواها، وذلك من شأنه أن يغري الباحثين ويثيرهم إلى تعرف ذلك والوقوف على أسبابه، وهو ما دفع الدراسة التي بين أيدينا إلى جمع الأحاديث التي وردت فيها صيغتا "**والذي**

(١) عمدة القاري ٣٣/ ٤٨٧.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٥١.

**نفسي بيده**"، "**والذي نفس محمد بيده**" من صحيحي البخاري ومسلم(١)، لما تمتازان به من تفخيم المقسَم به سبحانه وتعالى، وبيان طلاقة قدرته عز وجل؛ لكونهما من ألفاظ الكناية التي تَقرِن الدعوى بالدليل، بجانب ما فيهما من برهان قوي على صدق الحالِف؛ لما في ألفاظهما من التنبيه إلى معنى الحياة والموت، فكأنهﷺ يقول "والذي بيده حياتي وموتي" فكيف لي أن أقول على الله ما ليس بحق، أو أحلف به كاذبا، وهو الذي بيده أرواح الناس أجمعين، بالإضافة إلى ما في الحلف بهما من ظلال تسري إلى المتلقي، فيستشعر أن نفسه أيضا بيد الله سبحانه وتعالى، فيدفعه ذلك إلى امتثال المُقسَم عليه، والقيام به إن كان أمرا، والانتهاء عنه إن كان نهيا، مهما كلفه ذلك؛ خوفا من عقاب ربه، ورغبة في ثوابه، وخشية أن يقبض الله تعالى روحه على خلاف ما يحبه ويرضاه.

وقامت الدراسة بعد جمع هذه الأحاديث من الصحيحين باصطفاء واحد وعشرين حديثا، كانت مادة النظر والتحليل والتأويل والتعليل والمقارنة، وهي روافد المنهج التحليلي، الذي اختارته لنفسها، والذي أوجب عليها بعد اختيار الأحاديث أن تقوم بتقسيمها حسب السياق الذي وردت فيه، وأن تتوقف مع كل حديث منها مبرزة موقع القسم بإحدى الصيغتين، وموضحة الأثر الخاص الذي يترتب عليه، والمعاني التي يُقصد من وراء القسم إلى تأكيدها، أو تصحيحها، أو الحث عليها، أو الترهيب من مخالفتها، أو غير ذلك من الأغراض والأهداف التي تسعى الدراسة إلى استكشافها من السياق الذي ورد فيه كل حديث، بجانب الحرص على بيان وجه إيثار القسم بالصيغة التي ورد عليها.

كما كان للدراسة عناية بإيضاح الفنون البلاغية التي آزرت القسم في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، مع ذكر ما في ذلك من بديع المعاني وعظيم التوجيهات وبليغ العبر والعظات، بالإضافة إلى ما حرصت عليه من الوقوف مع

(١) أما صيغة "والذي نفس أبي القاسم بيده" فلم ترد في الصحيحين، وقد حلف بها الرسول مرة أو مرتين على الأكثر.

روايات بعض الأحاديث، بهدف إبراز فوائد التعبير في كل رواية، والغرض الذي من أجله اختلفت رواياتها، ما أمكنها ذلك.

وقد أفضى ذلك المنهج إلى أن يأتي هذا العمل في مقدمة وأربعة مطالب وخاتمة:

**المقدمة**– كانت لتوضيح الأسباب الدافعة إلى بحث هذا الموضوع، وبيان المنهج المتبع في دراسته.

و**المطلب الأول**– جاء بعنوان: موقع القسم وتأثيره في مقام **العبادات**.

و**المطلب الثاني**– كان عنوانه: موقع القسم وتأثيره في مقام **الغضب لله**.

و**المطلب الثالث**– جاء بعنوان: موقع القسم وتأثيره في مقام **تصحيح المفاهيم والأخطاء**.

و**المطلب الرابع**– كان عنوانه: موقع القسم وتأثيره في مقام **الإخبار بالغيب**.

وجاءت **الخاتمة** لتكشف عن أهم النتائج والتوصيات التي انتهت الدراسة إليها.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون إضافة إلى الدراسات السابقة التي أقيمت في موضوع القسم النبوي، والتي بذل أصحابُها فيها جهودا مشكورة مأجورة بأمر الله تعالى، والتي لا ينبغي أن يكون تناول إحداها لموضوع من الموضوعات حائلا دون إعادة دراسته بصورة كلية، أو بصورة جزئية، كما هو شأن هذه الدراسة، فالوحي النبوي مُحالٌ أن تحيط به عباراتُ الدارسين، وأن يستقصي ما فيه استنباطُ المستنبطين، وسيظل عطاؤه ممتدا متجددا على مر الأيام والسنين.

كما أسأله سبحانه وتعالى أن يغفر لي ما عجز عن إدراكه فهمي، وما قصّر في البصرِ به عقلي، وما لم تستطع البيانَ عنه من أسرار هذا الموضوع عبارتي، حيث إنني لا أزعم أني قمت بكامل حقه، ولكني أوقن أني قمت له، وأراه جديرا بأن تُشمر له السواعدُ، و تعكفَ عليه عقولُ ذوي البلاغة والبيان، لإيضاح ما فيه من معان وتوجيهات، خدمةً للأمة الإسلامية، ووفاءً بحق العلم.

**والله تعالى من وراء القصد وهو يهدي السبيل.**

**وكتبه صبحي إبراهيم عفيفي المليجي**

## المطلب الأول

## موقع القسم وتأثيره

## في مقام العبادات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- ﷺ- **أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ»**(١).

رصَد النبيﷺ تهاونا من بعض المسلمين في الحضور إلى المسجد لأداء الصلاة مع الجماعة، وعرف أنهم يصلون في بيوتهم، فكان منه هذا التوجيه الكريم علاجا لتلك الظاهرة، التي يؤدي غضُّ الطرف عنها إلى خراب بيوت الله تعالى، وغياب الوحدة والترابط عن المجتمع المسلم، وانتشار الانزواء والأحادية بين أفراده، بجانب الاجتراء على أداء شعائر الدين حسْب الأمزجة والأهواء، إلى غير ذلك من المعاني السلبية التي يسهم عدم العلاج الناجع في انتشارها، ومن ثم جاء البيان النبوي متسما بالحسم والحزم اللازمين لعلاج مثل هذه الظاهرة، الدالة على قصور الفكر، وانحراف الفهم.

وفيه أقسم النبيﷺ بالمولى سبحانه وتعالى بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" مرتين، **أولاهما**- لبيان ما عزم على فعله علاجا لهذا الانحراف، و**الأخرى**- لبيان الدوافع التي دفعتهم إلى ذلك، قاصدا من وراء القسم الأول تحقيق عدة أمور:-

**أولها**- الإعرابُ عن غضبهﷺ وعدم رضاه عن فعل المسلمين، الذين يتخلفون عن أداء الصلاة في المسجد مع الجماعة، ويؤدونها في بيوتهم، ظنا منهم أن القصد هو أداء الصلاة لا غير.

---

(١) صحيح البخاري- كتاب صلاة الجماعة والإمامة- باب وجوب صلاة الجماعة- رقم ٦٤٤ بترقيم فتح الباري.

**ثانيها**– إعلامُ جميع المسلمين– الحاضرين والمتخلفين على السواء– بأهمية المقسم عليه[١] وأنه من الوجوب بمكان، وأن التخلفَ عن القيام به لا يُقبل ولا يُتسامح فيه إلا بعذر شرعي[٢].

**ثالثها**– الإلماحُ إلى أن موت المسلم على الحالة التي تخلف فيها عن صلاة الجماعة، ظنا منه أن الغرض من الصلاة هو أداؤها دون الاجتماع عليها، فيه نوع من الخطأ والانحراف الذي يُخشى على صاحبه.

**رابعها**– بيان أنّ ما همّ به النبيﷺ من معاقبة هؤلاء المتخلفين عملٌ يَرضَى عنه اللهُ القادرُ عليه، والذي نفسه بيده، وأنه لا يصدر فيه عن اجتهاد خاص، أو تحركه إليه نوازعُ شخصيةٌ، وأنّ شأنَه فيه هو الشأنُ في جميع أقواله وأفعاله التي مدحها ربُّه بقوله "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى"(النجم ٣–٤).

وآزر هذا القسمَ في تحقيق الغرض من التوجيه والبيان عدةُ أساليب بلاغية، على النحو التالي:–

– المجيءُ بجواب القسم فعلا ماضيا دالا على التحقيق، مع تأكيده باللام وقد، في قوله "**لَقَدْ هَمَمْتُ**"، ومعناه: "عزمت من الهمّ، وهو العزم والإرادة"[٣]، ليدل بمعناه وزمانه وما سبقه من قَسَم ومؤكدات على أنّ النبيﷺ كان جادا غاية الجد في فعل ما عزم عليه من الأمر بجمع الحطب... إلخ، مما يعزز الإعلام بأهمية الجماعة، ويحذر من التقصير فيها، أو التكاسل عنها.

– إسنادُ الأفعال الرئيسة في الجواب إلى ضمير الرسولﷺ بصيغة التكلم "**هممتُ– آمر بحطب– آمر رجلا– أخالف– أحرق**"، للدلالة على عظم الأمر،

(١) يراجع: التبيان في أقسام القرآن– ابن القيم الجوزية / ٦– دار الفكر.

(٢) بين العلماء خلاف في حكم الجماعة، وهم بين قائل بأنها فرض عين، وقائل بأنها واجبة، وقائل بأنها سنة مؤكدة، وقائل بأنها شرط في صحة الصلاة، وأرى أنها واجبة وأن التخلف عنها لا يتسامح فيه إلا بعذر شرعي.

(٣) يراجع: مختار الصحاح– مادة همم، عمدة القاري ٨/ ٢٨٨.

وجدارته بأن يقوم الرسولﷺعلى تنفيذه، وأن الإنابة فيه أو التفويضَ لا يعطيه تلك الأهمية التي تفهم من مباشرة النبي ﷺ هذه الأعمال بنفسه، كما أن البناء الصوتي والدلالي لهذه الأفعال يرشد إلى أي مدى كان النبي ﷺ حازما في مواجهة إهمال الصلاة مع الجماعة والتأخر عنها.

– استعمال حروف العطف على وجه يزيد المعاني وضوحا، ويسهم في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، بحيث يصل المعنى إلى المتلقي بأسلوب لا لبس معه، ذلك أن عطف الفعل "**يُحْطَبَ**" ومعناه: يُجمع أو يُكسّر(١) على الفعل "**آمُرَ**" بالفاء التي تفيد التعقيب، يشير إلى أن الحطب سيتم جمعُه أو تكسيره في أسرع وقت، وسيقوم به المأمورون من غير تردد أو تأخر، وكذلك السر في عطف جملة "**يُؤَذَّنَ لَهَا**" على جملة "**آمُرَ بِالصَّلاَةِ**"، وجملة "**يَؤُمَّ النَّاسَ**" على جملة "**آمُرَ رَجُلاً**" بالفاء، حيث إن انعدام المدة الزمنية بين هذه الأفعال هنا دال على الجدية في الأمر، ولافت إلى أن إدراك الجماعة يتطلب همة في الحركة، وسرعة في إنجاز الأعمال، أما عطف جملة "**أُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ**" على جملة "**أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ**" ففيها إلماح إلى ترتب إحراق البيوت على مجرد وجود الرجال فيها أثناء الصلاة من غير سؤال عن السبب، أو استفسار عن العذر، وفيه من التخويف والترهيب ما لا يخفى.

وعطف جملة "**آمُرَ بِالصَّلاَةِ**" على جملة "**يُحْطَبَ**" بـ "**ثُم**" التي للتراخي، فيه دلالة على إعطاء فترة زمنية بين الفعلين، لكي يتمكن المأمورون من جمع أكبر كمية من الحطب، اللازم لإيقاد نار عظيمة، يطول اشتعالُها، ويعظم إحراقُها، ويُرهِب منظرُها من يفكر في التخلف عن الجماعة، وعطف جملة "**أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ**" على جملة "**يَؤُمَّ النَّاسَ**" بالحرف نفسه دال على أنّ النبيﷺ لن يخالف إلى بيوت المسلمين بمجرد إقامة الصلاة، ولكنه سيترك مدة زمنية تسمح بحضور الراغبين في الجماعة من بيوتهم للصلاة مع الإمام، ومن ثم لا

(١) يراجع: عمدة القاري ٨/ ٢٨٨.

يبقى في البيوت إلا من تعمد التخلف، فيكون إحراقُ البيت عليه جزاء عادلا، لا ظلم فيه.

– تعدية الفعل "**أُخَالِفَ**" إلى "**رِجَالٍ**" دون "أناس" أو غيره، فيه دلالة على أن الإحراق لن يكون إلا للرجال الموجودين في البيوت، وأنه لن يشمل النساء والصبيان"[(١)]، لأن الجماعة غير واجبة عليهم، كما أن دلالة اللفظة على: الكمال في الخِلقة والخُلُق[(٢)] يعزز استحقاقهم هذا الإحراق ويقويه، لأنه يومئ إلى أنّ المؤمّل فيهم أن يكونوا قدوة لغيرهم في الحرص على الجماعة والمسارعة إليها، وأن حصول ذلك منهم يناقض رجولتهم ويقدح فيها، كما حرص النبيﷺ على تنكير المجرور، دون تسمية هؤلاء الرجال، أو ذكر أحد منهم لكونهم معروفين، وجريا على عادته في تعميم البيان ليشملهم ويشمل غيرهم ممن ينهجون النهج ذاته في كل وقت وحين.

– التعبير عن العقوبة بالفعل "**أُحَرِّقَ**" مضعف العين مع تعديته إلى البيوت في قوله "**فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ**"، للإشارة إلى المبالغة في الإحراق وتوسعة نطاقه، ليشملهم ويشمل ما شغلهم عن الجماعة من متاع الدنيا وزينتها. ولما كان الإحراق أو التحريق ليس من عاداتهﷺ وغير معهود منه، جاء قسمه بالذي نفسه بيده تأكيدا لهمه به وتحقيقا لعزمه عليه، ولو خلا منه البيان لفقد أثره في تحيق الغرض المنصوب له.

---

**أما القَسَمُ الثاني** بالصيغة نفسها "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ**"، فأعاده النبيﷺ مع قرب العهد به، لتحقيق ما يلي:–

---

(١) السابق.

(٢) يراجع: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي– تحقيق عبد الرزاق المهدي ٥٩٢/٢.

**أولا**– تأكيد استحقاق الرجال الذين يتخلفون عن الجماعة الإحراقَ بالطريقة التي فصّلها رسول اللهﷺ.

**ثانيا**– إثارة المتلقي وتشويقه إلى جواب القسم، الذي يؤكد استحقاق المتخلفين ذلك العقاب، ويزيد من اقتناعه به، ويُذهب ما قد يعلق بنفسه، كما يربأ به ويحذره من أن يحذو حذوهم، أو ينهج نهجهم.

**ثالثا**– المبالغة في التهديد، والإعلام بإصرارهﷺ على الإحراق، وعدم التردد فيه، أو التراجع عنه.

وجاء جوابُ القسم "**لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ...**" معتمدا على أسلوب الشرط لما يمتاز به من البيان والإيضاح، بجانب إثارة المتلقي وتشويقه إلى ترقب جملة الجزاء، فإذا وردت ثبت ما فيها في نفسه، وتمكن منه فضل تمكن، وبذلك يتآزر الشرط مع القسم في بيان استحقاق المتخلفين عن الجماعة ما همّ النبيُّﷺ بفعله، من خلال ما يلي:-

– التعبير بـ "**لو**"– التي يغلب معها امتناع حصول الجواب لامتناع حصول الشرط[1] أداة له؛ لبيان أن السبب الحقيقي في تخلف هؤلاء عن الجماعة راجع إلى عدم تحقق مصلحة دنيوية أو مادية من وراء حضورهم إلى المساجد.

– المجيء بفعل الشرط "**يَعْلَمُ**" مضارعا، مع إسناده إلى"**أَحَدُهُمْ**" الدال على الفرد لا على الجمع، لما يخلعه ذلك التعبير على المعنى من تصوير حال الواحد منهم عند علمه بتحقق مصلحة مّا عند ذهابه لأداء الصلاة في المسجد، إذ يتحول كسلُه إلى نشاط، وعزوفُه إلى رغبة، وتأخرُه إلى مبادرة وتبكير، لئلا يفوته شيء من تلك المصلحة، على الرغم من أنها لا تقارن بثواب الجماعة، ولكنها دناءةُ النفس، وانحطاطُ الهمة، وخورُ العزيمة، وجدير بالفهم أن ما ينطبق على أحدهم ينطبق على جميعهم.

(١) الجنى الداني للمرادي/ ٤٦– تحقيق فخر الدين قباوة وآخرين– الأولى– دار الكتب العلمية.

– تعدية فعل الشرط "**يَعْلَمُ**" إلى المصدر المؤول "**أَنَّهُ يَجِدُ**" والمتعدي فعلُه إلى"**عَرْقًا**" الموصوف بـ "**سَمِينًا**"، وهو العظم عليه بقية اللحم(١)، مع عطف "**مِرْمَاتَيْنِ**" وهما: ظلفا الشاة(٢) عليه بـ "**أَوْ**" التي تفيد التنويع، ووصفه بـ "**حَسَنَتَيْنِ**" لبيان أنّ هؤلاء لا تحركهم إلا المصالحُ، ولا يخرجهم من بيوتهم إلا المنافعُ، يقول ابن رجب: "وذكر العَرَق والمرماتين عَلَى وجه ضرب المثال بالأشياء التافهة الحقيرة من الدنيا، فيه توبيخ لمن رغب عَن فضل شهود الجماعة للصلاة، مَعَ أَنَّهُ لَوْ طمع فِي إدراك يسير من عرض الدنيا لبادر إليه، ولو نودي إلى ذَلِكَ لأسرع الإجابة إليه، وَهُوَ يسمع منادِيَ الله فلا يجيبه"(٣).

– التعبير عن جواب الشرط بالفعل "**شَهِدَ**" الذي يعني "الحضور والعلم والإعلام"(٤)، والمجيء به فعلا ماضيا دالا على التحقق، مع تأكيده باللام "**لَشَهِدَ الْعِشَاءَ**"، ليتآزرَ مع القسم وفعل الشرط في توثيق انحطاط همتهم، وضعف عزيمتهم، ودناءة نفوسهم، وغير ذلك من المبررات التي تجعل الإسلام غنيا عنهم وعن أمثالهم، وتجعل إحراقهم بالنار جزاء مستحقا، لأن أمثال هؤلاء يضرون الإسلام أكثر مما ينفعونه.

ولما كان قولهﷺ "**لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ...**" دالا على خصائص نفوسهم وبواطن أمورهم التي لا يحيط بها علما إلا الله سبحانه وتعالى، جاء قسمه بالذي نفسه بيده– دون غيره– للجزم بأن ما أخبر به عنهم من دناءة النفس، وخور العزيمة وحي أوحاه إليه خالقُ النفوس، العالمُ بحقيقة أمرها.

*****

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ – ﷺ– قَالَ انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، أَوْ وَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، أَوْ كَمَا حَلَفَ– مَا مِنْ رَجُلٍ تَكُونُ لَهُ إِبِلٌ، أَوْ بَقَرٌ، أَوْ**

(١) فتح الباري– ابن حجر العسقلاني ١/ ١٥٦.
(٢) فتح الباري– ابن رجب ٤/ ١٣.
(٣) السابق.
(٤) مقاييس اللغة– مادة شهد.

**غَنَمٌ لاَ يُؤَدِّي حَقَّهَا إِلاَّ أُتِيَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنَهُ تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا كُلَّمَا جَازَتْ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولاَهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ»**(١).

الزكاة ركنُ الإسلام الثالث، وأحدُ براهين الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ولها من الفوائد ما لا يحصى، وقد سماها النبيﷺ في هذا التوجيه "**حق المال**" فقال: "**مَا مِنْ رَجُلٍ تَكُونُ لَهُ إِبِلٌ، أَوْ بَقَرٌ، أَوْ غَنَمٌ لاَ يُؤَدِّي حَقَّهَا**"، و"الحقُّ نقيض الباطل، وحقَّ الشيء يَحِقُّ حَقّاً أي: وَجَبَ وُجُوبًا"(٢)، للإشارة إلى أنها ليست تفضلا من المزكّي، ولا منحة يعطيها متى شاء، ويمسكها متى شاء، ومن فوائدها: أنها باب عظيم لتطهير المال وتنميته وزيادته، قال تعالى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" (التوبة ١٠٣)، ومن ثمّ يصبح الممتنعون عن أدائها، البخلاءُ بها هم الأخسرون، وإن ظنوا أنهم الرابحون الغانمون.

وفي هذا البيان الكريم يُقْسِم النبيﷺ بالله قائلا "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" على أن الفرحِين بكنز أموالهم، الممتنعين عن إخراج زكاتها، سيعذبون يوم القيامة بذلك المال الذي امتنعوا عن إخراج زكاته، قاصدا من وراء القَسَمِ بهذه الصيغة تحقيقَ ما يلي:-

**أولا**- شدةُ الترهيب وعِظَمُ التخويف من منع زكاة المال، بجميع أنواعه، سواء المذكور منها هنا، أو غير المذكور؛ اكتفاء بذكره في مناسبات أخرى، أو لأنّ ذكر البعض يغني عن ذكر الكل.

**ثانيا**- تأكيدُ تعذيب الممتنع عن إخراج الزكاة بنوعين من العذاب، أحدهما حسي، والآخر نفسي، وبذلك يبلغ عقابُه قمته، ويصل عذابُه ذروته، ويحصل له ما لا يحصل لغيره من المخطئين، على الرغم من كونه مسلما، يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

---

(١) صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- باب زكاة البقر- رقم ١٤٦٠ بترقيم فتح الباري.

(٢) يراجع: مقاييس اللغة لأحمد بن فارس- مادة حق.

**ثالثا**- البرهانُ على تيقنهﷺ من حصول ما أخبر به جوابا للقسم، لأنه من الأمور التي يمكن عدم استيعابها، ولم يعهد المخاطبون أحدا تكلم بمثلها، وإذا كان إحياء الناس وبعثهم للحساب أمرا قُطِع في إثباته شوطٌ كبير، فكذلك تعذيب الممتنعين عن زكاة الأنعام- نفسيا وبدنيا- بواسطتها أمر يحتاج إلى قسم يؤكد حصوله، ويقطع الشك فيه.

وجاءت جملة الجواب معتمدة على بعض الأساليب البلاغية التي تآزرت مع القسم بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" في تحقيق المقصود من البيان، على النحو التالي:-

- القصرُ بطريق النفي والاستثناء (ما وإلا)، والذي يستعمل عندما يواجه البيانُ عقيدةً رافضة، ومخاطبا منكرا أشد الإنكار، أو لمن ينزل هذه المنزلة، يقول الإمام: "وأما الخبر بالنفي والاستثناء... فيكون للأمر ينكره المخاطبُ ويشك فيه"(١)، كما أنه يعد أقوى طرق القصر في الإثبات والنفي، ويحمل في طياته نوعا من إثارة المتلقي وتشويقه إلى ترقب المقصور عليه، الواقع بعد أداة الاستثناء، فإذا ورد ثبت في نفسه، وتمكن منها تمكنا يساعد في التخويف والترهيب من منع زكاة المال، والضنّ بها.

ومما يلحظ في المقصور المنفي مجيئُه نكرة، مجرورا بـ "**مِنْ**" البيانية "**مِنْ رَجُلٍ**"، مع وصفه بجملة "**تَكُونُ لَهُ إِبِلٌ، أَوْ بَقَرٌ، أَوْ غَنَمٌ**"، والاحتراسِ بجملة "**لاَ يُؤَدِّي حَقَّهَا**"(٢) ليشمل العقابُ المذكورُ بعد "**إلا**" كلَّ من كان من جنس المقصور، أيا كان، ومتى كان، وأين كان، ولا يدخل فيه أصحاب الإبل والبقر والغنم التي يؤدون حقها. ولا يخفى ما في ذلك من ترغيب وترهيب.

ويلحظ كذلك في التركيب المُعَبَّر به عن المقصور عليه (الواقع بعد "**إلّا**")- "**أُتِيَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنَهُ...**"- التعبيرُ بالفعل

(١) دلائل الإعجاز- تحقيق محمود شاكر ٣٣٢- مطبعة المدني ونشر الخانجي.

(٢) الاحتراس هو: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المراد بما يدفعه. بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري ٩٣.

"**أُتِـيَ**" ماضيا مبنيا لما لم يسم فاعلُه، مع تعديته إلى الضمير العائد على الأنعام المذكورة بالباء "**بِهَا**"، للدلالة على يسر المجيء بأعيان هذه الأنعام أيا كان عددها، وأيا كان حجمها، وعدم صعوبة ذلك أو استحالته على الله ﷻ، الذي هو فاعل الإتيان والآمر به، يقول الراغب "والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعمّ، لأنّ الإتيان مجيء بسهولة"(١)، يقويه تقديم الجار والمجرور "**بِهَا**" على الظرف.

كما يلحظ تقييد فعل الإتيان بالظرفِ "**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"، والحالِ "**أَعْظَمَ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنَهُ**"، لما لذكر "**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**" من تأثير شديد في نفس المتلقي، حيث يدفعها التذكيرُ به إلى عمل كل ما يُنجي من أهواله وعذاباته، كما أنّ التقييد بالحال فيه بيان للهيئة التي تكون عليها تلك الأنعام، مما يعني أنّ وَطأ كل واحدة منها سيكون ثقيلا شديدا، ونَطحَ كل ذات قرن منها سيكون غير محتمل، وتقديم "**أَعْظَمَ**" **على** "**أَسْمَنَ**" مناسب لسياق التعذيب الذي وردا فيه، لدلالة الأول على القوة، ودلالة الثاني على الثقل، وكلاهما مفيد في الركل والنطح.

– فصلُ جملة "**تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا**" عما قبلها لكمال الاتصال، الذي تتصل فيه الجمل اتصالا ذاتيا يغنيها عن الواصل اللفظي(٢)، حيث إنها تنزل من الجمل السابقة عليها منزلة البيان لكيفية العذاب الذي يُعذب به من

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني– مادة أتى، مادة جاء.

(٢) ومن أوجه حسن هذا الضرب ما أشار إليه الدكتور محمد أبو موسى بقوله "هو في التوكيد تقوية المعاني وتقريرها، وفي البيان تنشيط النفس وإيقاظها، لأنها حين تتلقى كلاما ملفوفا بشيء من الغموض تشتاق إلى بيانه، وتستشرف في التعرف على وجهه، فإذا جاء البيان صادف نفسا يقظة، متطلعة، فيتمكن الكلام منها، وفي المنزل منزلة بدل البعض تفصيل وتنصيص، ... ولا يخلو الوجهان البدل والبيان من التوكيد، لأن في كل تكريرا للمعنى وتحقيقا، كما أن التوكيد لا يخلو من كشف الفكرة وبيانها، وإنما الذي نبهنا إليه هو أوضح ما في كل" دلالات التراكيب ٣٠٠.

يمنع زكاة الأنعام، ويمكن أن تكون هذه الجملة جوابا عن سؤال أثارته الجمل السابقة في نفس المتلقي عن سر الإتيان بهذه الأنعام يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه، وبذلك يكون سبب الفصل شبه كمال الاتصال الذي تتواصل فيه الجمل "من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع"(١)، وبه تبدو كل جملة موضوعة وضعا لا تحتاج فيه إلى ما قبلها، آتية مأتى ما ليس قبله كلام(٢) وهى مع هذا... موصولة بما سبقها من حيث المعنى وصلا قويا، لا تحتاج معه إلى رابط(٣)، هذا بجانب ما له من تأثير شديد في تحريك نفوس السامعين، وإثارة أذهانهم إلى فهم أغراض الكلام وإدراك مقاصده، كما أنه يبرهن على قوة الأسلوب وتناسق عباراته.

ويلحظ في تركيبها التعبيرُ بالمضارع "**تَطَؤُهُ**" و "**تَنْطَحُهُ**"، لما يمتاز به من استحضار الصورة الغائبة كأنها حاضرةٌ ماثلةٌ، تراها الأعينُ، وتعمل عملَها في النفوس، التي تملؤها الحسرةُ والألمُ بسبب ذلك المنظر المهين، وذلك العقاب المخزي لصاحب الأنعام الذي كان يتباهى بها، ويسعد باستعراضها، وينتشي بزيادة عددها، ويفرح بوفرة لحمها، ويصعب عليه إخراجُ رأس أو رأسين كلَّ عام؛ زكاةً لها، حيث وجد نفسه يومَ القيامة في موضع الروث منها، ليس ذلك فحسب، بل إنها اتجهت إليه لتطأَه بأخفافها، وتنطحَه بقرونها، لَوْمًا له بلغتها وعقابًا له بطريقتها على ما كان منه من الضنِّ بزكاتها، فاجتمع له بذلك عذابٌ حسي وعذابٌ نفسي، وبدأ بالوطئ بالأخفاف لأنه يجمع بين الإهانة والتعذيب، ولأنه أيضا بمثابة التمهيد للنطح بالقرون، ولو جاء الترتيب معكوسا لتمكن المطروح من تفادي النطح بأية صورة من الصور، وفي جمع الأخفاف والقرون إرعاب وإرهاب وتعذيب يضارع الهلاك، ولا شك أن استحضار المتلقي هذا المشهد كفيلٌ بأن يغرس في نفسه الرهبة والخوف الدافعين إلى إخراج زكاة

(١) دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ٣٠٩.
(٢) دلائل الإعجاز ٢٣٦ بتصرف.
(٣) دلالات التراكيب ٣٠٩.

ما لديه من إبل أو بقر أو غنم بصفة خاصة، وزكاة ما عنده من أموال بصفة عامة.

– المقابلةُ بين جملتي "**جَازَتْ أُخْرَاهَا**" و "**رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا**" مع الربط بينهما بـ "**كُلَّمَا**" الدال على الزمان، للإلماح إلى استمرار هذا المشهد المهين وتكراره، في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، والفرق واضح بين ما جاء عليه البيانُ المعجز، وبين خلوه من هذه المقابلة الداعمة حصولَ الرهبة والخوف في نفس صاحب المال من الضن بزكاة ماله، أو حتى مجرد التفكير في ذلك.

– تقييد هذه المقابلة بالجملة الظرفية "**حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ**" لتحقيق أمرين: **أولهما**– بيان المدة الزمنية الذي يحصل فيها هذان العذابان لمانع الزكاة، وأنها تستمر طلية يوم القيامة، ذي الأهوال المذكورة في القرآن والسنة، مما يعني حصول ذلك المشهد له وسط أهوال هذا اليوم وشدائده، و**الآخر**– الإشارة إلى أن لمانع الزكاة عذابا غير هذين العذابين، يقضي به اللهُ سبحانه وتعالى عليه ضمن ما يَقضي به على جميع خلقه، ولم يذكر النبيﷺ ذلك العذاب بصريح القول، اعتمادا على ذكره في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها على سبيل المثال قوله تعالى: "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ"(التوبة ٣٤–٣٥)، وربما يكون في عدم الذكر نوع من التهويل والتفخيم المُلمِح إلى أنّ عقاب مانع الزكاة لا يعلمه أحد إلا الله جل في علاه، وبذلك يتآزر الإمساك عن البيان مع البيان بالقسم والقصر والمقابلة في الترهيب من منع زكاة المال، أيا كان نوعه، ولعل قوله تعالى "هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ" يرشد إلى وجه إيثار النبيﷺ القسم بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" على غيرها في هذا المقام.

*****

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ– ﷺ– أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ**

**أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ وَإِذَا لَقِىَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»**(١).

في هذا البيان الشريف يتحدث النبيﷺ عن فضل الصيام وثوابه عند الله سبحانه وتعالى، ترغيبا فيه، وتوجيها لأدائه على الوجه الذي يجعله حقيقا بالثواب المذكور، والفضائل المثبتة، من خلال الأساليب التي تم حشدها لتتآزر مع بعضها في بيان منزلة هذا الركن، الذي يُمسك فيه المسلمُ عن اللغو من الكلام، ويمتنع عن الطعام والشراب، فتتغير رائحة فمه تغيرا يشعر به الصائمُ نفسُه، كما يشعر به القريبون منه، وقد خص الرسول ﷺ هذه الفضيلة- دون غيرها- من فضائل الصوم بالقسم، قائلا "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**"، مؤثرا صيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" لتحقيق عدة آثار، على النحو التالي:-

**أولا**- الإثارة والتشويق الحاصلان من تخصيص هذه المزية دون غيرها من المزايا بالقَسَم، ما من شأنه أن يدفع المتلقي إلى ترقب الجواب الذي يوضح أسباب هذا الاختصاص، فإذا ورد ثبت في نفسه وتمكن منها فضل تمكن.

**ثانيا**- التنبيه على شرف المقسم عليه وخطره، إذ لا يتم القَسَمُ ابتداء إلا على أمر ذي بال وشأن.

**ثالثا**- تأكيد المقسم عليه وتثبيته في نفس المتلقي، لكونه من الأمور غير المعتادة، التي يُتوقع ألا يتلقاها بالتسليم والقبول الذي تلقّى به غيرَها من المزايا، لأن النفس البشرية مجبولة على النفور من الروائح الكريهة، والابتعاد

(١) صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- باب: هل يقول إني صائم إذا شتم؟- رقم ١٩٠٤، صحيح مسلم- كتاب الصوم- باب فضل الصيام- رقم ٢٧٦٢.

عنها بطريقة عفوية، ولعل هذا من أسباب إيثار القسم بالصيغة الواردة دون غيرها.

**رابعا**– ترغيب المسلم في الصيام، وإرشاده إلى الصبر على ما يلاقيه من تغير في رائحة فمه، بسبب الجوع وخلو المعدة، وأن يَستحضر ما يتحقق له من المنزلة والمكانة، وما يحصل له من الأجر والثواب، بسبب هذا الخُلوف، وكذا الأمر بالنسبة للمحيطين به، الذين يخالطهم ويخالطونه.

**خامسا**– ما يشعُّ من ذكر النبيﷺ نفسه مضافة إلى اسمه العلم "**نَفْسُ مُحَمَّدٍ**" من إظهار الضعف، الموحي بالخوف من الكذب على من بيده نفوس الخلق بعامة، ونفس محمدﷺ بخاصة، ومن ثمّ يقع ما يخبر به هنا موقع اليقين الذي لا يخالجه شك، ويتلقاه المسلم بالتصديق والقبول، وثمّ أمرٌ آخر يوحي به ذلك التعبير وهو أن شأن محمدﷺ في حرصه على الصيام مع ما يترتب عليه من الجوع والعطش وغيرهما من الآثار شأن جميع المسلمين، وذلك دافع جديد يزيد في قبول الأمر واستساغته.

وفي تأكيد جواب القسم "**لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**" باللام والجملة الاسمية؛ والتعبير عن المسند باسم التفضيل "**أَطْيَبُ**" المتعدي إلى "**رِيحِ الْمِسْكِ**"، الدال على بلوغ هذا الخُلوف في القبول درجة لا يصل إليها غيره من الروائح، مع تعليقه باسم الجلالة العلم "**الله**" بما له من الهيبة والجلال؛ والمسبوق بالظرف "**عِنْدَ**" المُكنّى به عن المكانة والمنزلة، وليس الظرفية المكانية؛ زيادةُ تأكيد لما أحدثه القَسَم في نفوس المتلقين، وضمان لاستمرار الأثر المترتب عليه في وجدانهم، وتصعيدٌ في ضرورة تلقي هذا الخُلوف بالقبول والسرور وعدم الاشمئزاز أو النفور.

واختُلف في معنى "**أَطْيَبُ**..."، فقيل: هو من باب المَجَاز بالاسْتِعَارَة؛ "لِأَنَّ اسْتِطَابَة بَعْض الرَّوَائِح مِنْ صِفَات الْحَيَوَان الَّذِي لَهُ طَبَائِع تَمِيل إِلَى شَيْء فَتَسْتَطِيبُهُ، وَتَنْفِرُ مِنْ شَيْءٍ فَتَسْتَقْذِرُهُ، وَاَللَّهُ تَعَالَى مُتَقَدِّسٌ عَنْ ذَلِكَ، لَكِنْ جَرَتْ عَادَتُنَا بِتَقْرِيبِ الرَّوَائِح الطَّيِّبَة مِنَّا، فَاسْتُعِيرَ ذَلِكَ فِي الصَّوْم، لِتَقْرِيبِهِ مِنْ

اللَّهُ تَعَالَى"[١]، وعليه يكون التعبير من قبيل الاستعارة التمثيلية، التي شبهت فيها حال قبول الله تعالى الصيام، وتقريب صاحبه بحال استطابة الإنسان الروائحَ الطيبة وإقباله عليها، بجامع القبول والتقريب في كل، ثم استعيرت الحالة الثانية للأولى على سبيل الاستعارة التمثيلية، التي توضح منزلة الصيام، وثواب ما يحصل بسببه، وقيل معناه: "يُجَازِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَتَكُون نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيح الْمِسْك"[٢]، وعليه يكون التعبير من باب المجاز المرسل، لعلاقة المسببية، حيث أطلق المسبب، وهو طيب الرائحة وأراد السبب وهو حسن الجزاء، وقيل: أطيب عند الله يوم القيامة[٣]، فيكون التعبير من باب المجاز المرسل، لعلاقة اعتبار ما يكون، وقيل غير ذلك، والمراد: "حمل معنى الطيب على الرضا عن الصائم وقبول عمله"[٤].

---

هذا فيما يخص قسم النبيﷺ على هذه المزية، أما بقية مزايا الصيام وضوابطه، فقد حفل البيان النبوي بما يوضح للمسلمين ثوابه ويرغّبهم فيه، حيث بدأه النبيﷺ بالأسلوب الخبري الخالي من المؤكدات، والذي يُخاطَبُ به خالي الذهن، في قوله "**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ...**"، وفيه أُسند فعل القول إلى المولى سبحانه وتعالى باسمه الأعظم؛ ليتم تلقيه بالقبول والإذعان، وليتأكد لدى المسلمين اختصاصُ الصيام بما تمّ الإخبارُ به عن المولى سبحانه وتعالى.

وفي جملة القول: "**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ**" تم التعبير بالاستثناء الدال على أنّ ثمةَ جوانبَ يتميز بها الصيام عن غيره من العبادات التي يتقرب بها المسلمُ إلى ربه سبحانه، ذلك أن قوله "**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ**"- بما فيه من كلمات تفيد العموم والشمول، وبما فيه من ذكر

(١) المنهاج ٤/ ١٥٢.
(٢) السابق.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/ ١٠٥.
(٤) يراجع: السابق.

الضمير العائد إلى "**ابْنِ آدَمَ**" مجرورا بحرف الاختصاص[1]"**لَهُ**"- يدل على أن ابن آدم يستفيد من كل العبادات بفوائد مباشرة؛ لأنها تتم في العلن، كما أن ذكر الصيام مسبوقا بحرف الاستثناء "**إِلاَّ الصِّيَامَ**" يدل على أن هذه الفريضة لا يحصل معها للمسلم شيء من تلك الفوائد، لأنها تتم في الخفاء، ولا يمكن لأحد من الناس معرفتُها، أو الاطلاعُ عليها.

وقوله تعالى "**فَإِنَّهُ لِي**"- بتركيبه المكون من حرف التوكيد واسمه العائد إلى الصيام، وضمير الجلالة المسبوق بلام الاختصاص- بيانٌ للمزية التي اختُص بها الصيام، وهي كونه يؤدى لله تعالى، من غير أن يكون للصائم منه أدنى استفادة[2]، وفيه ما يوجب عليه أن يؤديه في أتم صورة لتلقي الله تعالى له بالحفاوة المشار إليها في قوله "**وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**"، والذي تم فيه تقديمُ المسند إليه "**أَنَا**" على الخبر الفعلي "**أَجْزِي بِهِ**" لإفادة اختصاص المولى سبحانه وتعالى بالمجازاة على الصيام، ونفي ذلك عمن سواه، أو لتقوية الخبر وتأكيده، وأيّمّا كان فالغرض من التركيب "بَيَان عِظَمِ فَضْل الصيام، وَكَثْرَةِ ثَوَابه لِأَنَّ الْكَرِيم إِذَا أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ الْجَزَاء اِقْتَضَى عِظَم قَدْر الْجَزَاء وَسَعَة الْعَطَاء"[3]

---

(١) الجنى الداني للمرادي ١٤.

(٢) اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَاهُ مَعَ كَوْن جَمِيع الطَّاعَات لِلَّهِ تَعَالَى، فَقِيلَ: سَبَب إِضَافَتِهِ إِلَى اللَّه تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُعْبَدْ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ، فَلَمْ يُعَظِّم الْكُفَّارُ فِي عَصْرٍ مِنْ الْأَعْصَارِ مَعْبُودًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ، وَإِنْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ وَالصَّدَقَةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْر ذَلِكَ، وَقِيلَ: لِأَنَّ الصَّوْم بَعِيدٌ مِنْ الرِّيَاء لِخَفَائِهِ، بِخِلَافِ الصَّلَاة وَالْحَجّ وَالْغَزْوَة وَالصَّدَقَة وَغَيْرهَا مِنْ الْعِبَادَات الظَّاهِرَة، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّائِمِ وَنَفْسه فِيهِ حَظٌّ، قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ، قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّ الِاسْتِغْنَاء عَنْ الطَّعَام مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتَقَرُّب الصَّائِم بِمَا يَتَعَلَّق بِهَذِهِ الصِّفَة وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا الْمُنْفَرِدُ بِعِلْمِ مِقْدَار ثَوَابه أَوْ تَضْعِيف حَسَنَاته وَغَيْره مِنْ الْعِبَادَات أَظْهَر سُبْحَانَهُ بَعْض مَخْلُوقَاته عَلَى مِقْدَار ثَوَابهَا، وَقِيلَ: هِيَ إِضَافَة تَشْرِيف. المنهاج ١٥٢/٤.

(٣) المنهاج ٤/ ١٥٢.

وبعد تهيئة المتلقي بكلام الله تعالى، تابع الرسولﷺ بيان فوائد الصيام وضوابطِه، فقال: "**وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ...**"، وفيه من دقائق النظم، وتنوع أساليب الإيضاح والتأثير ما يلي:

أ- تشبيه الصيام بالجُنة في قوله "**وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ**" تشبيها بليغا على ما هو مشهور، أو تشبيها مؤكدا كما يرى القزويني(١) لأن التشبيه "إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا"(٢)، وفيه شبه النبيﷺ الصيامَ بالجُنّة، وهو: الترس الذي يحتمي به الإنسان من القتال(٣)، بجامع الستر والوقاية، مما يدل على: أن الصيام يقي المسلم من الآثام والمعاصي التي تنتهي به إلى عذاب النار والعياذ بالله، والذي يتأمل المشبه به يجد أنه يدل على أمرين: **أولهما**- مبادرة المقاتِل إلى الاحتماء بالترس، و**الآخر**- ما يحصل بسبب هذا الاحتماء من ستر ووقاية، وهذا الأمران متحققان في المشبه، فإن الصائم متى رغب في حفظ جوارحه، ومَنَعها من التمادي في تعاطي المعاصي، ساعده الصيامُ على ذلك، فتتحققُ له الوقاية من النار والنجاة من عذابها، وهو ما توضحه بقية الأساليب التي سيتم بيانها.

---

(١) المشهور أن التشبيه البليغ هو: المحذوف الأداة. بغية الإيضاح ٣/ ٦٣، بينما يسمي الخطيب القزويني هذا النوع منه بالتشبيه المؤكد. الإيضاح بشرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٣/ ٦٧.

(٢) أسرار البلاغة- لعبدالقاهر الجرجاني ٩٣.

(٣) يراجع: فتح الباري ٤/ ١٠٤.

**ب**- أسلوب الشرط، الذي يمتاز بالإثارة والإيضاح اللازمين لبيان كيفية كون الصيام جُنّةً من المعاصي والآثام، حيث استعمله النبيﷺ لإيضاح ذلك وبيانه مرتين:-

**الأولى**- في قوله "**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَصْخَبْ**"، وفيه ربط بين فعل الشرط وجوابه بـ "**إذا**" التي للتحقيق، مع عطف الجملتين بالفاء التي تفيد التسبب؛ للإشارة إلى ضرورة الالتزام بالجواب عند حصول الشرط، حتى يتحقق للصائم الستر والوقاية من النار، وفي الجواب عبر بأسلوب النهي "**فَلاَ يَرْفُثْ... وَلاَ يَصْخَبْ**"؛ لما يتسم به من حزم يحول دون الوقوع في شيء مما تم النهي عنه، لكونه غير مرتبط بالوسع أو الاستطاعة، قالﷺ "مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ..."[(١)] ما يعني: أن الصائم منهي عن الرفث، وهو الكلام الفاحش أو الجماع ومقدماته، أو الحديث عنه مع النساء[(٢)]، بأي شكل من الأشكال، ومنهي كذلك عن الصخب، وهو الصوت المرتفع في غير حاجة[(٣)] بأية صورة من الصور، ووجه النهي عنهما في يوم الصيام مع أنهما ممنوعان في غيره، ما فيه من تأكيد منعهما ومنع غيرهما فيه؛ تنزيها له عما يمكن أن يقع في غير يومه من الأخطاء والزلات.

**الأخرى**- في قولهﷺ "**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ**" والذي جيء به لبيان ما يفعله الصائم عند اعتداء أي أحد عليه بالسب أو القتل أو غيرهما، فتزداد كيفية كون الصيام جُنّة وضوحا وظهورا. وفيه رَبَطَ النبيﷺ بين جملتي الشرط بـ "**إنْ**" التي للشك، للإلماح إلى أنّ حصول السب أو القتل أمر مشكوك فيه، إذا المأمول أن يكون المسلمون أثناء صيامهم في حالة من الروحانية العالية التي تحول بينهم وبين وقوع ذلك، وجاء بفعل الشرط على

(١) صحيح مسلم- باب توقيرهﷺ وَتَرْكِ إِكْثَارِ سُؤَالِهِ عَمَّا لاَ ضَرُورَةَ إِلَيْهِ - رقم ٦٢٥٩.
(٢) مقاييس اللغة- مادة رفث.
(٣) السابق- مادة صخب.

صيغة المفاعلة "**سَابَّهُ...قَاتَلَهُ**"؛ للإلماح إلى المبالغة المستفزة المُحَفّزَة إلى الرد، وخَصّهما بالذكر من باب التمثيل، ولأنهما يمثلان أدنى صورالاعتداء وأعظمها، وعطف جملتي الشرط بفاء السببية؛ للإشارة إلى ضرورة الالتزام بما تم الإرشاد إليه عند حصول الشرط بالكيفية التي تم ذكرها أو بغيرها، وهو قوله "**إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ**" الذي جيء به مشتملا على أكثر من مؤكد؛ للإشارة إلى ضرورة إصرار الصائم على أن يكون صيامه حائلًا بينه وبين الرد، وجنةً له من النار وموجباتها.

وعبر في الجواب بالمضارع المقترن باللام "**فَلْيَقُلْ**" لأن هذه الصيغة "أوجب وأشد تأكيدا في نفس السامع من الأمر الصريح، وفيها من المبالغة في الإلزام ما فيها"[(١)]، وبين العلماء خلاف في طريقة قول المشتوم: "**إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ**" على ثلاثة أقوال: **أحدها**– أن يقول بلسانه إني صائم؛ حتى يعلم من يجهل أنه معتصم بالصيام عن اللغو والرفث والجهل، و**الثاني**– أن يقول ذلك لنفسه، أي: إذا كنت صائما فلا ينبغي أن أخدش صومي بالجهل ونحوه، فيزجر نفسه بذلك، والقول **الثالث**– التفرقة بين صيام الفرض والنفل، فيقول ذلك بلسانه في الفرض، ويقوله لنفسه في التطوع[(٢)]، وأرى: أن يقول بلسانه تذكيرا لنفسه ولغيره معا.

**ج**– المقابلة بين قوله "**سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ**" وقوله "**إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ**"، لإبراز ما يتمتع به الصائم من ضبط النفس والصبر على الأذي، وإظهار غيره في حالة من التردي واتباع الهوى، وبها يتضح ما للصوم من أثر كبير في الحيلولة بين الصائم وبين موارد الهلكة والعذاب.

**د**– خَتْمُ الحديث ببيان جزاء الصائم في الدنيا والآخرة، وذلك في قولهﷺ "**وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ وَإِذَا لَقِىَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**"، إذ

(١) ينظر: صورة الأمر والنهى في الذكر الحكيم د. محمود توفيق سعد ١٨.
(٢) عمدة القاري ١٦/ ٢٣٣.

مـن العـادة أن تتطلـع الـنفس إلـى الجـزاء بعـد الحـديث عـن منزلـة الصـيام وضـوابطه، وبعد القَسَم على أن خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، فإذا جاء البيان عنه صادف نفسا يقظة، وعقلا متطلعا مترقبا، ومن ثم يتمكن المعنى المراد من النفس والعقل فضل تمكن، وفي هذا الختام من أساليب التأكيد ما يلي:-

**أولا**- القصر بطريق تقديم الخبر "**لِلصَّائِمِ**" على المبتدأ "**فَرْحَتَانِ**"، والذي يفيد تأكيد المعني بطريقين: أولهما- نفي حصول الفرحتين لأي أحد من الناس، والآخر- إثبات حصولهما للصائم دون غيره، مما يدل على تفضيل الصائم وتمييزه عمن سواه.

**ثانيا**- التوشيع الذي يؤتى فيه نهايةَ الكلام بمثنى مفسر يتم تفسيره بمفردين معطوف أحدهما على الآخر(١)، وبه يتم ذكر المعنى وتأكيده مرتين، إحداهما في التثنية "**فَرْحَتَانِ**"، والأخرى في التفسير "**إِذَا أَفْطَرَ...**"، بجانب ما فيه من إثارة المتلقي وتشويقه.

**ثالثا**- فصل جملة "**إِذَا أَفْطَرَ...**" عما قبلها لكمال الاتصال، الذي تنزل فيه الجملة الثانية من السابقة عليها منزلة التابع من المتبوع، وبه أيضا تتأكد المعاني وتتحقق؛ كما يقول الدكتور أبو موسى: "هو في التوكيد تقوية المعاني وتقريرها، وفي البيان تنشيط النفس وإيقاظها... وفي المنزل منزلة البدل تفصيل وتنصيص... ولا يخلو الوجهان البدل والبيان من التوكيد، لأن في كل تكريرا للمعنى وتحقيقا"(٢).

**رابعا**- تكرار ما يدل على فرح الصائم بصيامه، ورضاه بالجزاء الذي جازاه به ربه، حيث تكررت مادة (فرح) الدالة على خلاف الحزن، بمعنى: ذهاب أسبابه، وعدم حصول شيء منه(٣) في هذا الختام أربع مرات (**فَرْحَتَانِ**-

(١) ينظر: الإيضاح بتعليق الشيخ الصعيد ٢/ ١١٨.
(٢) دلالات التراكيب ٣٠٠.
(٣) ينظر: مقاييس اللغة- مادة فرح.

**يَفْرَحُهُمَا- فَرِحَ بِفِطْرِهِ- فَرِحَ بِصَوْمِهِ)**، وفي التكرار نوع من التأكيد الدال على تنعم الصائم بالنعيم **الحسي** والنعيم **المعنوي**، ما من شأنه أن يترك أثرا كبيرا في النفس البشرية المجبولة على الإكثار مما ينفعها، واجتناب ما يضرها ولا يرفعها.

*****

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ**» (١).

في هذا البيان أراد الرسولﷺ ترغيب المسلمين في عبادة الجهاد، وحثَّهم على بذل النفس في سبيل الله، فجاء بيانه مشتملا على جزئيتين:- **أولاهما**- بيان الضمانات التي تكفل اللهُ تعالى بها، وأوجبها للمجاهدين في سبيله، وذلك في قوله: "**تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**"، **والأخرى**- القسم بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" ثلاث مرات على بعض المزايا والأماني التي تصبُّ في غرض الحث على الجهاد، والتضحية بالنفس من أجل هذا الدين، ويشمل باقي الحديث.

(١) صحيح مسلم- كتاب الجهاد- باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله- رقم ٤٩٦٧.

وفيما يخص الجزئية الأولى أسند النبيﷺ فعل الضمان بمعنى: التكفل والوجوب[١] ماضيا مضعف العين إلى اسم الجلالة العلم، الذي يعبر به في مواضع القدرة والإجلال، مع تعديته إلى المفعول بحرف اللام المفيد للاختصاص، والتعبير عن المفعول بالاسم الموصول بجملة توضح الغرض من الخروج "**تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ**"؛ لأجل تأكيد حصول هذا الضمان، والتوجيه إلى ضرورة الثقة في شموله كل الخارجين في سبيل الله بلا استثناء، يقول النووي– رحمه الله– "وَفِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى: "تَكَفَّلَ اللَّه" وَمَعْنَاهُمَا: أَوْجَبَ اللَّه تَعَالَى لَهُ الْجَنَّة بِفَضْلِهِ وَكَرَمه سُبْحَانه وَتَعَالَى، وَهَذَا الضَّمَان وَالْكَفَالَة مُوَافِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى: "إِنَّ اللَّه اِشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّة...(التوبة ١١١)" [٢].

وجيء بجملة "**لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي**" الواقعة حالا؛ والمنصوب فيها ما بعد "**إِلَّا**" على الاستثناء أو على أنه مفعول لأجله، لبيان أن هذا الضمان لا يحصل إلا لمن كان خروجه في سبيل الله تعالى على النحو المذكور من الإخلاص، والصدق في التوجه، إذ المعنى: "لَا يُخْرِجهُ الْمُخْرِج، وَيُحَرِّكهُ الْمُحَرِّك إِلَّا لِلْجِهَادِ وَالْإِيمَان وَالتَّصْدِيق"[٣]، وفيه تم التعبير بالقصر عن طريق النفي والاستثناء، الذي يعد من أقوى الطرق في الإثبات والنفي، حيث تم قصر الغرض من الخروج للجهاد على كونه في سبيل الله وإيمانا به سبحانه وتصديقا برسله، بعد نفيه عن جميع الأغراض، لئلا يتوهم حصول الضمان المذكور لمن خرج من أجل تحقيق غرض غير هذه الأغراض، أو من أجل تحقيق غرض آخر معها، ووجه إيثار النفي والاستثناء الذي يستعمل عندما يواجه البيان عقيدة رافضة، أو لمن ينزل هذه المنزلة – كما سبق بيانه– هو وضوح التنبيه، وشدة التحذير، كي تخلص

(١) المنهاج ٦/ ٣٥٣.
(٢) السابق.
(٣) نفسه، وينظر: الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم للنووي ٢٠/ ١٦٩.

النية، ويصح القصد من الخروج، فيترتب عليه الضمان المصرح به، وقَدم الجهاد على الإيمان والتصديق لكونه برهانا عليهما، وذَكرَهما بعده لأنهما من مستتبعاته وأسبابه، ويمكن أن يكون الترتيب تنازليا، بدأ فيه بالأعلى ثم بالذي يليه وهكذا.

وجيء بقوله "**فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ...**" معطوفا على ما قبله بفاء السببية للإشارة إلى ترتيب ما بعده على ما قبله ترتيبا يوجب الاستحقاق، ويعزز إخلاص النية ويقويه، وفيه قدم الجار والمجرور "**عَلَىَّ**" على الخبر المشتق "**ضَامِنٌ**" لتقوية استحقاق الضمان وتأكيد حصوله، سواء أكان بمعنى: "مَضْمُون كَمَاءٍ دَافِق وَمَدْفُوق، أم كان بِمَعْنَى: ذُو ضَمَان... وهذا كله عبارة عن أن هذا الجزاء لا بد منه"(١).

وقولُه "**أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**" معمولُ الخبر المشتق "**ضَامِنٌ**"، وفيه قابلﷺ بين قوله "**أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**" وقوله "**أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ...**"، وهي مقابلة جمعت بين حالتي الموت والحياة، أو الشهادة والانتصار، مع ذكر ما يترتب على كل واحدة منهما؛ تلبية لما تتطلع إليه النفس البشرية المجبولة على ترقب ما ينفعها، لا سيما إذا كان ما يتم ترغيبها فيه عملا يتطلب تضحيتها بالروح ومفارقة الأهل والمال والوطن، وهي من أصعب الأشياء، وبدأتْ بذكر الاستشهاد وما يترتب عليه، توافقا مع غرض البيان القاصد إلى الترغيب في بذل النفس في سبيل الله تعالى، ولكونه الأعلى أجرا، والأفضل مكانة ومكانا، والغرض منها بيان "أَنَّ اللَّه تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِج لِلْجِهَادِ يَنَال خَيْرًا بِكُلِّ حَال"(٢).

---

(١) المنهاج ٦/ ٣٥٣.
(٢) السابق.

أما فيما يخص قَسَمَ النبيﷺ في قوله "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**"، فقد سبق ذِكْرُ أنهﷺ أقسم بهذه الصيغة ثلاث مرات على بعض المزايا والأماني التي تصب في غرض الحث على الجهاد، والتضحية بالنفس من أجل هذا الدين، على النحو التالي:-

**الأولى**- في قوله "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ**"، **والثانية**- في قوله "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى**"، **أما الثالثة**- ففي قوله "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ**"، ولهذه الأقْسام من السمات البلاغية والآثار النفسية لدى المتلقي ما يلي:-

**أولًا**- تكرار القسم مع قرب العهد به، وإمكان الاكتفاء بالأول، وعطف جوابي القَسَمين الآخرين على جوابه، والسر في ذلك كون التكرار مؤذنا بأهمية كل معنى من المعاني المُقسم عليها، ومشعرا بضرورة تأكيده للمتلقي تأكيدا مستقلا، ليقع موقعه اللائق عنده، فيُقبلَ على ما يدعو إليه جوابُ القسم الأول إقبالَ الواثق الضامنِ حصولَ ما أقسم عليه من جزاء في الدنيا والآخرة، ويتفهمَ ما يبرر به النبيﷺ قعوده عن بعض الغزوات في جواب الثاني، ويتأكدَ من حبهﷺ الجهاد في جواب الثالث، وهو ما لا يتحقق إذا تم الاكتفاء بالقسم الأول.

**ثانيًا**- مجيء جواب القسم الأول معتمدا على أسلوب القصر، بطريق النفي والاستثناء؛ ليتآزر مع القسم في تأكيد شرف المجاهد، وإبراز مكانته بين الناس يوم القيامة، وإثبات ذلك بالدليل والبرهان، إذ "الْحِكْمَة فِي مَجِيئِهِ يَوْم الْقِيَامَة عَلَى هَيْئَته أَنْ يَكُون مَعَهُ شَاهِد فَضِيلَته، وَبَذْله نَفْسَه فِي طَاعَة اللَّه تَعَالَى"[(١)]،

(١) نفسه.

ويلحظ تنكير المقصور "**كَلْـمٍ**"؛ ليشمل كلَّ الجراح التي يُكلم بها المجاهدُ، والتعبير بالفعل "**جَاءَ**" مع ما فيه من صعوبة[١] للإلماح إلى أنه مجيء له شأنه ومنزلته، كما أنه يناسب حالة الإجهاد والشدة التي يكون عليها المجاهدون، وفي تقييد زمن المجيء بكونه "**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"، المذكور بأهواله في البيان القرآني والبيان النبوي ما يستجيش عواطف المتلقين، ويدفعها إلى استعذاب الجراح الناتجة عن الجهاد واستصغارها، واستصغار ما هو أعظم منها إذا قورن بما يترتب عليه من ثواب عند لقاء الله رب العالمين.

**ثالثًا**– مجيء جواب القسم الثاني معتمدا على أسلوب الشرط الذي يتكون من جملتين، تترتب الثانية منهما على الأولى وتتسبب عنها، مع الربط بينهما بـ "**لَوْلاَ**" الذي هو حرف امتناع لوجود[٢]، لتتضح من خلاله الأسباب التي كانت وراء عدم مشاركة النبيﷺ في بعض السرايا، ولبيان أن تركَه الخروج فيها لم يكن عزوفا عن الجهاد الذي يدعو إليه أتباعَه، بل كان من أجل "الشَّفَقَة عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَة بِهِمْ... وَالسَّعْي فِي زَوَال الْمَكْرُوه وَالْمَشَقَّة عَنْهُمْ"[٣]، وبه يتضح ما للقسم من أثر بالغ في تأكيد حبهﷺ الجهاد، وحرصه على بذل النفس في سبيل الله تعالى، ولذلك أثره الشديد في زيادة حرص المسلمين على الخروج وبذل النفس، لأنهم يتأسون به في الأقوال والأفعال.

**رابعًا**– تأكيد المقسم عليه باللام في جواب القسم الثالث "**لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ**"، مع التعبير بفعل الود، الذي هو أعظم الحب وأقواه[٤]، وتأكيد معموله بأنّ والجملة الاسمية؛ لإيضاح مدى رغبتهﷺ في الغزو، وبيان مدى استعداده للتضحية بنفسه في سبيل الله، ثم المطابقة الخفية المتكررة بين فعل الغزو الدال على الحياة وفعل القتل الدال

(١) مفردات القرآن– مادة جاء.
(٢) الجنى الداني ١٠٢.
(٣) المنهاج ٦/ ٣٥٣.
(٤) ينظر: مقاييس اللغة– مادة ود.

على الموت، وعطف الفعلين بالفاء التي تفيد التعقيب للإشارة إلى أمله في ألا تطول به الحياة بعد الرجوع إليها، بسبب ما رآه بعد القتل في سبيل الله من نعيمٍ، تعد الحياة وما فيها- مقارنة به- لا تساوي شيئا، وفي إيثاره التعبير بفعل القتل "**أُقْتَلُ**" دون فعل الموت ما يوحي باستعذابه القتل في سبيل الله مع ما فيه من جراح وآلام، وفيه من الترغيب ما لا يخفى.

أما الروايات التي تم فيها عطف فعل القتل على فعل الحياة بـ "**ثُمّ**" التي للتراخي والمدة[1]، ففيها إلماح إلى أنّ طول الحياة ونعيمها لن ينسيهﷺ الشهادة وما ترتب عليها، وأنه لن يحيد عن رغبته في نيلها، مهما طالت به الحياة، ومهما تقلب في خيراتها، لأن ذلك لا يقاس بما أُعد للشهيد عند ربه سبحانه وتعالى، قال عزوجل "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ"(آل عمران ١٦٩-١٧١).

**خامسًا**- أن مجيء هذه الأقسام مرتّبة على النحو المذكور عائد إلى حرصهﷺ على تقديم العام على الخاص، حيث بدأ بالقسم على ما يَهُمّ المجاهدين أجمعين، ثم ثنّى بما يخص الضعفاء منهم والمعوذين، ثم ختم بما يخصهﷺ من حب الشهادة في سبيل الله، ولو بدأ بالثالث لكان المسلمون مطالبين بأن يكونوا مثله في ذلك الحرص، ومن ثم فلن يكون لمجروح أجر، ولن يكون لقاعد عذر.

**سادسًا**- ما يشعُّ من ذكر النبيﷺ نفسه مضافة إلى اسمه العلم "**نَفْسُ مُحَمَّدٍ**" من الإلماح إلى عدم اختلافهﷺ عن سائر المسلمين في الافتقار إلى ثواب رب

(١) روى البخاري أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِﷺ يَقُولُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً يَكْرَهُونَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ مَا تَخَلَّفْتُ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ". صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- باب ما جاء في التمني ومَن تمنى الشهادة- رقم ٧٢٧٦.

العالمين، والتطلع إلى معرفة عطائه للمجاهدين، بجانب أنه- كإنسان- يقدر ما يعرض لهم في بعض الأحوال، مما قد يحول بينهم وبين الخروج للجهاد، وأنه لأجل ذلك تخلي عن رغباته لأجلهم، وترك كثيرا مما يحب لمصلحتهم.

ووجه إيثار القسم بالصيغة التي جاء عليها كونه مناسبا للحث على بذل النفس في سبيل الله، بما فيه من إيماء إلى أن التخلف عن الجهاد لن يحول دون أخذ الروح إذا أراده الله ﷻ، كما أن الخروج فيه لن يؤدي إلى أخذ النفس إذا لم يرد الله ذلك ويقدره، لأن النفوس كلها بيده ﷻ.

*****

## المطلب الثاني

## موقع القسم وتأثيره

## في مـقام الغـضـــب للّه

عَنْ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِﷺ فَقَالَ«**أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ**» قَالَ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللهِﷺ خَطِيبًا فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللهِﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِﷺ(١).

وقصد النبيﷺ من هذا البيان تحريم الشفاعة في حدود الله عزوجل، وبيان ضرورة التسوية بين الرعية في تنفيذ هذه الحدود وتطبيقها، وفيه أقسمﷺ قائلا "**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**"، بإضافة نفس إلى اسمه الظاهر، ولقسمه بهذه الصيغة هنا من السمات البلاغية والدلالات المعنوية ما يلي:

**أولا**– الإعراب عن غضبه من قوم المخزومية بصفة عامة، وغضبه من أسامة بن زيد– على الرغم من مكانته– بصفة خاصة، جريا على عادتهﷺ في اللين وعدم الغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرم الله ﷻ، ومما يؤازر القسم في التعبير عن هذا الغضب الاستفهام الإنكاري في قوله لأسامة "**أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ**"، وفيه أدخل همزة الاستفهام على المضارع "**تُكَلِّمُنِي**" للدلالة على إنكاره مجرد الكلام في هذا الأمر بله الشفاعة، التي وردت بها روايات

(١) البخاري– كتاب بدء الوحي– رقم ٤٣٠٤، مسلم– باب قطع السارق الشريف وغيره ...– رقم ٤٥٠٦.

"**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ**"، وجميعها يدل على تحريم هذا الأمر وإنكار التفكير فيه، أو مخاطبة أحد من أولي الأمر به، وفي تنكير "**حَدٍّ**" ووصفه بالجار والمجرور "**مِنْ حُدُودِ اللهِ**" بإضافة المجرور إلى اسم الجلالة الأعظم "**الله**"، دلالة على ما في الكلام والشفاعة من اجتراء يستلزم العقوبة، وهو ما دفع أسامة إلى طلب الدعاء بالمغفرة، ومما يؤيد غضب الرسولﷺ كذلك أن الأمر لم ينته عند لوم أسامة، وإنما امتد حتى العشي، لأن الخطبة التي خطبها والقسم الذي أقسمه كان بالعشي.

**ثانيا**– التمهيد للقَسَم بذكر السبب في هلاك السابقين، وأنه يتمثل في اجترائهم على حدود الله تعالى، والتعامل معها وفق مبادئ وحسابات تؤدي إلى انتشار الظلم من ناحية، وتبتعد بها عن الغايات والمقاصد التي شُرعت من أجلها من ناحية أخرى، وذلك في قولهﷺ بعد حمد الله تعالى والثناء عليه "**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ**"، متخذا من القصر بـ "**إنما**"– التي تستعمل في الأمر الواضح المعلوم الذي يعلمه المخاطب ولا ينكره[1]– وسيلة للتذكير ببدهية هذا الأمر، ولفت النظر إلى أنه سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير، كما أن التعبير بالفعل "**كَانُوا**" دال على أن مجرد الاجتراء على حدود الله والسماح بقبول الشفاعة والمحاباة في تطبيقها يجعل هذا الأمر مألوفا حتى يصير في تكوين الناس، ويصبح من عاداتهم، فيترتب عليه عذابُهم وإهلاكُهم، كما عبر النبيﷺ في تمهيده للقسم بالمقابلة المعتمدة على الشرط، "لأنها من الأساليب التي تزيد البيان وضوحا وتأكيدا، من خلال الجمع بين المعاني المتناقضة التي يستلزم تصور أحدها تصور الآخر، ومن ثم يكون الذهن عند ذكر الطرف الأول مهيأ لمقابله ومستعدا له، فإذا ورد ثبت وتأكد"[2]، حيث

(١) يراجع: الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي ٢/ ١٧.

(٢) يراجع: دراسات منهجية في علم البديع– د. الشحات أبوستيت ٥٠ وما بعدها.

قابل هنا بين معنيين في قوله "**إِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ**"، ومثلهما في قوله "**وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ**"، وهي مقابلة تتسم بالدقة التعبيرية التي تصور بوضوح المحاباةَ التي تقتضي العذابَ والإهلاكَ، وتحذر المسلمين من أن ينهجوا هذا النهج أو يسيروا في ذات الطريق، ذلك أن التعبير بـ "**إِذَا**" أداة للشرط في طرفي المقابلة دال على عدم ترددهم في ترك الشريف، وعدم ترددهم أو توقفهم عن معاقبة الضعيف، كما أن إسناد جواب الشرط الأول "**تَرَكُوهُ**" والفعل المقابل له في الشرط الثاني "**أَقَامُوا**" إلى ضمير الجمع دال على أنهم توافقوا على هذا ورضوا كلُّهم به، ومن ثم كان الإهلاك عاما للجميع، وغني عن البيان أن الكلامَ عن السرقة دون غيرها من الحدود إنما هو من باب التمثيل لا الحصر، قَالَ اِبْن دَقِيق الْعِيد: "الظَّاهِر أَنَّ هَذَا الْحَصْر لَيْسَ عَامًّا، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل كَانَتْ فِيهِمْ أُمُور كَثِيرَة تَقْتَضِي الْإِهْلَاك، فَيُحْمَل ذَلِكَ عَلَى حَصْر مَخْصُوص وَهُوَ الْإِهْلَاك بِسَبَبِ الْمُحَابَاة فِي الْحُدُود، فَلَا يَنْحَصِر فِي حَدّ السَّرِقَة"(١).

**ثالثا**– أن هذا القسم يعد بمثابة التصعيد في التوجيه، والشدة في التحذير ليصل إلى الذروة، وينقطع به الأمل في أن تؤتي الشفاعة أكلها ولو بعد حين، ذلك أن التعبير عن المقسم به جل جلاله بالاسم الموصول بجملة "**نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" يدل دلالة واضحة على خوفهﷺ من ربه، القادر على قبض روحه على تلك الحالة من الاجتراء على حدود الله تعالى والاستهانة بها، وأن محمدا بوصفه إنسانا، وبوصفه نبيا ورسولا لا يحب ذلك لنفسه ولا يرضاه، مما يجعل القسم هنا دالا على أن ذلك لن يكون منه، ولا ينبغي أن يكون من أحد أصحابه المأمورين باتباعه في الخوف من الله تعالى بخاصة، وفي جميع الأحوال بعامة، ولعل هذا أحد أوجه إيثار القسم بهذه الصيغة هنا على غيرها.

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داوود ٩/ ١٥٠١.

كما أن التعبير في جوابه بالحرف "**لَوْ**"- الدال على امتناع الجواب لامتناع الشرط[١]- فيه دلالة على أن ذكر "**فَاطِمَةَ**" من باب "الْمُبَالَغَة فِي تَثْبِيت إِقَامَة الْحَدّ عَلَى كُلّ مُكَلَّف وَتَرْك الْمُحَابَاة فِي ذَلِكَ"[٢]، وفي ذكرها مجردة من الألقاب مع تعبير النبيﷺ عن نفسه باسمه العلم "**مُحَمَّدٍ**" دون ما يدل على نبوته أو رسالته إلماح إلى أنه لا اعتداد بالرسالة أو النبوة أو غيرهما من الأوصاف والألقاب أمام حدود الله عزوجل، وأن محمدا وابنته عند تنفيذها لا يختلفان عن غيرهما من الناس، وفي مجيء جواب الشرط ماضيا مؤكدا باللام، مع إسناده إلى ضمير الرسولﷺ "**لَقَطَعْتُ يَدَهَا**" دون قوله "لأمرت بقطع يدها" تأكيد لمباشرته القطع بنفسه، وتنفيذه إياه بيده، وأن أبوته لها لن تكون حائلا بينه وبين قطعه يدها، مما يدل على وجوب إقامة حد الله "على البعيد والقريب، والبغيض والحبيب، لا تنفع في ذريةٍ شفاعة، ولا تحولُ دونه قرابة ولا جماعة"[٣]، وهو ما كان بعد القسم، كما بينت روايات الحديث.

*****

وَعَنْ أَبِى حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِﷺ رَجُلاً مِنَ الأَسْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ- قَالَ عَمْرٌو وَابْنُ أَبِى عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ- فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِى أُهْدِىَ لِى قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ «**مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِىَ لِى. أَفَلاَ قَعَدَ فِى بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِى بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لاَ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ**

(١) مغني اللبيب- ابن هشام ١/ ٣٣٧ وما بعدها.
(٢) السابق.
(٣) المفهم ١٦/ ٤.

**رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ**». ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَىْ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» مَرَّتَيْنِ(١).

في هذا الحديث يقصد النبيﷺ بيان حرمة هدايا العمال، "لما يترتب على دفعها لهم من كون المدفوع إليه يحابي الدافع، فقد يعطيه شيئًا لا يستحقه، أو يقدمه على غيره، أو يتساهل في حق من لا يعطيه هدية، ويساعد من يدفع له هدية ويقدمه"(٢)، قاله النبيُّﷺ بمناسبة إصرار ابن اللتبية على الاحتفاظ بما أهدي إليه، ومطالبته بذلك بأسلوب من يرى أن ذلك حقُّه، الذي لا ينبغي لأحد أن يقترب منه "هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِى أُهْدِىَ لِى"، وهو ما أغضب رسول الله ﷺ ودفعه إلى صعود المنبر، كي يوضح للناس بعامة شناعةَ هذا الصنيع وحرمتَه، ويحذرهم من أن يفعلوا مثله، وجاء بيانه عن ذلك مشتملا على استفهامين والقَسَم بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ...**" مع التعقيب على ذلك بقوله «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**».

حيث بدأ النبيﷺ حديثه القاصد إلى تحريم هدايا العمال بالاستفهام في قوله "**مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِىَ لِى**"؛ لما يتميز به من إيقاظ العقل، وتحريكه إلى إدراك مقاصد الكلام وفهم مراميه، لأنه في أصل الوضع يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، كي يقع الجوابُ في موقعه، ما من شأنه أن يدفع المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه إلى ما يُلقى، ليتمكن من فهمه، ثم الإجابة عليه، يقول الإمام "واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع، حتى يرجع إلى نفسه... ويعي بالجواب"(٣)، وفيه أدخلﷺ حرف الاستفهام على "**بَالُ**" بمعنى: حال، المضاف إلى "**عَامِلٍ**" بالتنكير، أو المعرف بأل الجنسية كما ورد في

(١) مسلم- باب تحريم هدايا العمال- رقم٤٨٤٣، البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ٦٩٧٩.

(٢) شرح سنن أبي داوود- عبدالمحسن العباد ٦٨/١٦.

(٣) دلائل الإعجاز- ١١٩.

بعض الروايات، جريا على عادته في التعليم والتوجيه، وليشمل بيانه جميع العمال الذين يقومون على أمور الدولة، في أي زمان ومكان، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والغرض من تعبيره بالاستفهام- بجانب ما سبق ذكره- الإعراب عن شديد اندهاشه وعميق إنكاره[1] لفعل ابن اللتبية وقوله، يقوي ذلك إعادتُهﷺ التعبير الذي صدر عنه "هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي"، بما فيه من طباق بين الضميرين المجرورين بلام الاختصاص "**لَكُمْ**" و"**لِي**"، والدال على أنه قد فرق بين الهدية والصدقات ووضعهما متقابلين، كما يفعل المقتسمون.

ثم عبر النبي ﷺ بالاستفهام أيضا في قوله "**أَفَلاَ قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لاَ**"؟ "موبخا له على تأويله الفاسد، مبينا بطلان رأيه الكاسد"[2]، بالدليل والبرهان، حيث دعاه إلى التفرغ مما كُلّفَ به من أعمال، مُكنّيا عن ذلك بقوله "**قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ**"، مؤثرا

(١) دلالةُ الاستفهام على الإنكار والتعجب أو غيرهما من المعاني قضيةٌ بلاغيةٌ عرض لها كثيرٌ من العلماء قديما وحديثا، وهم بين قائل: بأن المعاني غير الحقيقية المستفادة من الاستفهام وغيره من أساليب الإنشاء الطلبي معان مجازية (ينظر: عروس الأفراح ٢/٢٩٠، والمطول/٢٣٥، وحاشية السيد على المطول /٢٣٥)، وقائل بأنها من باب الكناية (ينظر: حاشية الدسوقي ٢/٢٩٢)، وقائل بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: عروس الأفراح ٢/٣٠٦)، ولست هنا بصدد المفاضلة بين هذه المذاهب، حيث قام بذلك شيخ البلاغيين المحدثين الدكتور محمد أبو موسى، وتابعه في ذلك الدكتور/ محمود توفيق سعد، والدكتور/ محمود موسى حمدان، وأراني مقتنعا بوجهه نظرهم في القول بأن هذه المعاني من مستتبعات التراكيب (ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف- الطبعة الثانية- ٣٦٥، دلالات التراكيب- ٢١٦، الاستفهام القرآني دقائق ورقائق- د. محمود توفيق سعد- ٧ وما بعدها، أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية- د. محمود موسى حمدان- مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد ١٢).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢/ ٢١٩.

التعبير بهما دون "بيته"، وكذا التعبير بالفعل "**يُهْدَى**" المبني للمجهول، ليكون عزوف الناس جميعا عن الإهداء له مع عراقة أصله أو شدة احتياجه دليلا دامغا على أن ما أهدي إليه من قبل كان بسبب ما كلف به من أعمال، ولا علاقة له بشخصه أو أصله من قريب أو بعيد، وأوثر التعبير بالفعل "**يَنْظُرَ**" المسند إلى ضمير العامل دون "ننظر"، حرصا من النبيﷺ على إقناع المتلقين بقبول التوجيه، وحثا لهم على تدريب نفوسهم المتطلعة إلى المال على الانصياع.

وبعد ما أحدثه الاستفهامُ من تنبيه الغافلين، ولفت نظر الحاضرين، ودعوتهم إلى التفكر فيما طُرح عليهم من أسئلة مثيرة وهادية إلى التوقف عن قبول الهدايا، أقسم النبيﷺ بـ "**الذي نفس محمد بيده**" في قوله "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ**"؛ لإيصال المعاني التالية:-

**أولا**- القطع بحرمة ما يتلقاه العمال من هدايا، وأنها تدخل في الغلول الذي وُجِّه النهيُ عنه للرسول في قوله تعالى: "**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**" (آل عمران ١٦١)؛ ليكتسب التحذير أهميته، وليقع النهي عند المسلمين موقعه.

**ثانيا**- الجزم بحصول المقسم عليه، والقطع بوقوعه، لأنه من الغيبيات التي أَطْلَعَ اللهُ تعالى عليها رسولَهﷺ، ولا يخفى ما لذلك من تأثير قوي في التخويف والردع.

**ثالثا**- الإعلام بأن محمداﷺ لا يملك من أمر نفسه شيئا حيال هذا التشريع، وأنه كذلك لن يملك لأحد من أتباعه الذين أصابوا ذلك شيئا، كما صرح به في أحاديث الغلول[1].

(١) البخاري- باب الغلول- رقم ٣٠٧٣، مسلم- باب غلظ تحريم الغلول- رقم ٤٨٣٩.

**رابعا**– الترهيب من أن يقبض الله تعالى أرواح العمال الذين يقبلون الهدايا ويستحلونها، على هذا الحال من المعصية والجُرم، فيَرِدُوا مواردَ الخزي والفضيحة، قبل أن يأمر الله تعالى بهم إلى جهنم وبئس القرار.

**خامسا**– دعوة المسلمين بعامة، والعمال بخاصة إلى تزكية النفس، وترويضها على رفض الهدايا المُغرضة والترفع عنها، لما للنفس من أثر كبير في قبولها أو رفضها، إذ هي اللاعب الرئيس في ذلك، ولعل هذا من أسباب إيثار القسم بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" على غيرها في هذا السياق.

وجاء البناء التركيبي للجواب مساندا ومؤازرا ما أحدثه القسم في نفوس المتلقين، حيث دل من خلال تنكير المسند إليه "**أَحَدٌ**"، والمفعول "**شَيْئًا**" على شمول المُقسم عليه جميعَ العاملين على أي شيء نالوه من الهدايا، ومن ثم يحصل العزوف عن قبول صغيرها و كبيرها، كما ساعد القصرُ بطريق النفي والاستثناء– الدال على نفي تعذيب العامل الحاصل على هدايا بأي نوع من العذاب، ثم إثبات عذابه بعين الهدية التي أهديت إليه– في تأكيد تعذيبه بنوعين من العذاب، **أحدهما** بدني، ويتمثل في حمله تلك الهدية على عنقه يوم القيامة، و**الآخر** نفسي، ويتمثل فيما يلحقه من فضيحة وتشهير بين الملأ في ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الهدايا، ولا تفيد فيه العطايا.

وكان للتعبير بالمضارع "**يَحْمِلُهُ**" الموصول بضمير الهدية، والمُعدَّى إلى المجرور بحرف الاستعلاء "**عَلَى عُنُقِهِ**" أثرُه في استحضار المتلقي صورةَ المُهدَى إليه وقد حمل الهدية– أيا كان وزنها– فوق رقبته ومشى بها بين الخلائق، مُطأطأَ الرأس مُنكّسَ الجبين، يتصبب عرقا، ويتحشرج نفسا، وهي صورة كافية بدفع من كان عنده مثقال ذرة من الكرامة و الحرص على حفظ ماء الوجه إلى النفور مما يسبب حصولها، وفي نهاية الجواب كان تفصيل الهدايا بعد إجمالها، بذكر ما ثقل وزنه وصعب حمله، مع ترتيبها ترتيبا تنازليا، وقرنها بأسماء الأصوات التي تصدر منها صدورا متواصلا من غير انقطاع،

لما يفيده ذلك من تعذيب المُهدَى إليه بدنيا ونفسيا وسمعيا، وبه يزداد نفور المتلقين من قبول الهدايا، ويحصل اقتناعهم بحرمتها.

وفي رفع الرسولﷺ يديه- بعد القسم- وتكرار ندائه ربه ومولاه سبحانه وتعالى باسمه الأعظم، مع التعبير بالاستفهام الدال على الخبر في قوله "**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**"- إذ معناه: قد بلغت(١) ما أمرتني بإبلاغه من حرمة هدايا العمال، وسوء مصير من يطلبها أو يقبلها- دلالة على ما يلي:-

- الإعلام بأن ما قاله في هذا الموضوع من الوحي الذي أوحاه إليه ربه، وأمره بتبليغه، ومن ثم فهو يكرر إشهاد الله تعالى على امتثاله أمره الوارد في قوله "**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**"(المائدة ٦٧).

- الإشارة إلى أن ذلك من الأمور التي ينبغي تبليغُها عنه، ونقلُها إلى جميع المسلمين، لخطورة ما فيها، وشدة احتياج أمته إليها، لكونها من الضوابط التي يحتاج إليها الراعي والرعية.

- براءتهﷺ من كل من يخالف ما أبلغ به في هذا الموضوع بخاصة، وفي غيره بعامة، سواء أكان من أصحابه أم من متبعيه، في أي زمان ومكان، ما من شأنه تقوية الرهبة في نفوس العمال من قبول ما يهدى إليهم، وتعزيز ترفعهم عنه (٢).

*****

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ- ﷺ- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِى السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا**»(٣).

---

(١) ينظر: حاشية السندي على صحيح البخاري ٢/ ٤٢.

(٢) يبدو لي أن ميدان البحث البلاغي في حاجة إلى دراسة بلاغية تقف مع مواضع تعبير النبيﷺ بقوله "اللهم هل بلغت" ودلالاته في كل سياق ورد فيه.

(٣) مسلم- باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها- رقم ٣٦١٣.

هذا الحديث مما قاله النبيﷺ حرصا على تماسك البيوت واستقرارها، حتى يشعر أفرادُها بالراحة والاطمئنان، وينطلقوا منها إلى التأثير في مجتمعهم وإسعاد البشرية من حولهم، وفيه أقسمﷺ قائلا "**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ**" على تحقق سخط الله تعالى على المرأة التي تمتنع عن تلبية دعوة زوجها إلى الفراش بغير عذر، وهو قسم يحمل كثيرا من الدلالات التي يرغب النبيﷺ في توصيلها إلى النساء في كل زمان ومكان، انطلاقا من حرصه عليهن، وحبه لهن، ومنها ما يلي:-

**أولا**- الإعرابُ عن غضبهﷺ من المسلمات اللاتي يفعلن ذلك، وتنبيهُهُن إلى أن سخط الزوج يوجب سخط الرب سبحانه وتعالى، ورضاه يوجب رضاه.

**ثانيا**- تحريم عصيان المرأة زوجَها في حال طلبها إلى فراشه وتفخيمُه، ببيان أنه معصيةٌ تختلف عن سائر ما يُعصى به الله تعالى، لتوقف العفو فيها على عفو الزوج ورضاه.

**ثالثا**- تحذيرُ المسلمة من عصيان زوجها- ما لم يأمرها بمعصية- بصفة عامة، وترهيبها من فعل ذلك أو التفكير فيه في الحالة المذكورة بصفة خاصة، لما يترتب عليه من أضرار قد تعصف بالأسرة، وتجعلها ساحة للنكاف والمشاحنات، بدلا من أن تكون واحة للسكينة والتفاهم.

**رابعا**- دعوة النساء إلى تزكية أنفسهن وترويضها على الانصياع لرغبة الزوج وعدم الترفع عنها، أو التفكير في استخدام هذه الخصيصة في الضغط عليه أو ما شابه ذلك، لما للنفس البشرية النسوية من أثر كبير في حصول الامتناع أو عدمه، ولعل هذا سر اصطفاء القسم بالصيغة التي ورد عليها.

وجاء البناء التركيبي للجواب مساعدا القسمَ في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، حيث اعتمد على القصر بطريق النفي والاستثناء، الذي يُستعمل حين يواجه البيان عقيدة رافضة، ومخاطبا منكرا أشد الإنكار، أو لمن ينزل هذه المنزلة، كما سبق بيانه، ذلك أن الأَضرار التي تترتب على هذه المعصية تفرض الحسم في التوجيه، وتوجب الحزم في البيان، كي يُغلَق هذا البابُ في

وجه من تفعل ذلك أو تفكر فيه، وبه نَفَى حصولَ سخط الله تعالى على المرأة من أي طريق، ثم أثبته من طريق عصيانها الزوج حين يدعوها إلى الفراش، ليؤكد أن هذه المعصية لا تعدلها معصيةُ أخرى مبالغةً، وليؤكد كذلك أن المرأة لا ينفعها مع تلك المعصية كثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، وأنه لن يدفع سخط الله النازل عليها بسببها إلا عدولُها عن عصيان زوجها، والتماسُها رضاه بتحقيق رغبته.

وفيه عبر بالمضارع "**يَدْعُو**" لما يمتاز به من استحضار الحالة المُتحدث عنها كأنها حاضرة ماثلة، وبه يُستقبح فعل المرأة التي يأتيها زوجها راغبا في قضاء وطره، فتمتنع هي عنه من غير عذر ولا علة، وتتركه في حالة من الرغبة التي لا سبيل إلى تصريفها إلا من خلالها، إذ لا عوض له عنها، ولا بديل له منها، وأسنده إلى ضمير الاسم النكرة "**رَجُلٍ**" أو المعرف بأل التي للجنس كما عند البخاري(١)، ليكون التنبيه شاملا جميع الأزواج بلا استثناء، وأوثر التعبير به دون "**زوج**" لما فيه من دلالة على كمال الخُلُق والخِلقة(٢) الذي يوجب تفخيمه وتقديره بتلبية حاجاته بصفة عامة، وحاجاته الجسدية فور طلبها بصفة خاصة، كما أن التعبير به يستدعي مفهوم القوامة التي جُعلت له بسبب ما فُضِّل به، والتي تقتضي المطاوعة وعدم العصيان أو المخالفة.

كما عبر عن الزوجة بلفظ المرأة "**امْرَأَتَهُ**" جريا على عادة البيان العربي في إيثار هذه الكلمة عندما تفقد الحياة الزوجية بعض مقوماتها، أو كلّ مقوماتها، إذ يقف العصيان هنا حائلا دون كون الحياة بين المرأة ورجلها على النحو المثالي، وهو ما درج عليه البيان القرآني أيضا، "ولعل السر البياني...

---

(١) عن أَبِي هُرَيْرَةَ- ﷺ- قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ". البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ٣٢٣٧.

(٢) يراجع: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي ٢/ ٥٩٢.

في ضن القرآن بكلمة "**زوج**" في المقامات التي تكون الحياة الزوجية فيها قليلةَ الإثمار أن الكلمة نفسَها تدل على "الزوجية"، فالمرأة ما سميت زوجا إلا مضافا إليها الرجل، وما سمي الرجل زوجا إلا مضافة إليه هي، ودبيب الخلاف ينافي هذا الاعتبار، أما "**امرأة**" فهي خالية من تلك الدلالة، إذ هي إطلاق عليها باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل"(١).

وكنّى عن حاجة الرجل إليها ورغبته فيها بقوله "**إِلَى فِرَاشِهَا**"، وهي من الكنايات اللطيفة التي تدعو المرأة إلى أن تراقب زوجها، وتفطن إلى رغبته فيها، وتتفهم وقت حاجته إليها، ولا تمتنع عن دعوته، سواء أكانت تلميحا أم تصريحا، وفيه أضاف لفظ الفراش إلى ضمير المرأة، للإلماح إلى أنها دعوةٌ تتوافق مع ما فُطرت عليه، وتتماشى مع ما خُلقت لأجله، ومن ثم فلا يجب أن تقابل بالنفور والعصيان، وفي رواية البخاري أضيف لفظ الفراش إلى ضمير الرجل "فِرَاشِه" ولا تعارُض، لأن دعوتها إلى فراش الرجل تتوافق هي الأخرى مع الغرض الذي تزوجها له، وأعد لها الفراش بسببه، ووافقت عليه عندما رضيت به زوجا، مما يعني أنها عاصية في كلتا الحالتين وآثمة، وقوله "**تَأْبَى**" يشير إلى شدة امتناعها(٢)، وعبر به تنفيرا من الامتناع بجميع درجاته وأشكاله، وعطْفُه على "**يَدْعُو**" بالفاء مع تعديته إلى ضمير الرجل بحرف الاستعلاء "**فَتَأْبَى عَلَيْهِ**" دليل على أنه امتناع مصحوب بالأنفة والتعالي، ولا تقف وراءه أسباب مقبولة، أو أعذار مشروعة.

وعبر بقوله "**إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِى السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا**" لبيان حرمة الامتناع وتقبيحه، ولترهيب مَنْ تفعله أو تفكر فيه، ويلحظ التعبيرُ بالماضي "**كَان**" للدلالة على تحقق سخط الله تعالى بمجرد امتناع المرأة عن فراشها، وتعريفُ المسند إليه بالاسم الموصول بالجار والمجرور "**الَّذِي فِى السَّمَاءِ**"

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبدالعظيم المطعني ١/ ٣٩٦- مكتبة وهبة.

(٢) الفروق اللغوية- أبو هلال العسكري ٨.

دون الاسم العلم للإلماح إلى اطّلاعه سبحانه على فعلها، وقدرته على إنزال عقابه الفوري عليها؛ جراء عصيانها، يقويه تعديةُ الخبر إلى ضميرها بحرف الاستعلاء "**سَاخِطًا عَلَيْهَا**"، ومنه استنبط العلماء حرمة عصيان المرأة زوجها عند دعوتها إلى الفراش، وأسند فعل الرضا المسبوق بحرف الغاية، والمتعدي إلى ضمير المرأة بحرف المجاوزة إلى ضمير الرجل؛ في قوله "**حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا**"؛ لبيان أن ارتفاع سخط الله تعالى عليها وصفحَه عن عقابها متوقفٌ على رضا زوجها عليها، وعفوِه عنها، ولا يخفى ما فيه من تعظيم حق الزوج والدعوة إلى عدم معصيته بعامه، وفي هذا الأمر بخاصة.

وفي رواية البخاري "إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ"، حيث أشار إلى تحريم امتناعها عن الرجل بقوله "لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ"؛ ولا تعارض، "لأنهم لا يلعنون إلا عن أمر الله، ولا يكون لعنهم إلا عقوبة، ولا عقوبة إلا على ترك واجب، ورتب اللعن على الامتناع المتسبب في غضب الزوج في قوله "فَبَاتَ غَضْبَانَ"؛ لأنها حينئذ يتحقق ثبوت معصيتها، بخلاف ما إذا لم يغضب من ذلك، فإنها لا تستحق اللعن"[(١)]، كما أنه لا خلاف بين قوله "حَتَّى تُصْبِحَ"، وقوله في رواية مسلم التي معنا "**حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا**"، لأن القصد: حثُّها على الإسراع في رضا زوجها وتلبية رغبته قبل أن يطلع الصبح على أقصى تقدير، يقويه تأويل بعضهم " تُصْبِحَ" بمعنى: "تَرجع"[(٢)].

*****

(١) سبل السلام – محمد بن إسماعيل الصنعاني ٣/ ١٤٣– بتصرف.
(٢) فيض القدير ١/ ٤٤٢.

## المطلب الثالث

## موقع القسم وتأثيره

## في مقام تصحيح المفاهيم والأخطاء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»(١).

هذا الحديث من جوامع الكلم الذي أوتيه رسول اللهﷺ فإن المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد للوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الوالد لولده، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع أصناف المحبة في محبته(٢)، والقصد منه بيان أن حُبّ الرسولﷺ شرط من شروط الإيمان، إرشادا لمن لم يكن كذلك، و تصحيحا لمن فهم غير ذلك، وفيه أقسم النبيﷺ بالذي نفسه بيده على عدم اكتمال إيمان العبد حتى يكون حبه الرسولﷺ أكثر من حبه والدَه وولدَه.

وتحقيقا لهذا المعنى أدخلﷺ حرف النفي على المضارع الواقع في صدر جواب القسم "**لاَ يُـؤْمِنُ أَحَـدُكُمْ**"؛ لإثارة المخاطب وتهييجه إلى إتيان الفعل، والاجتهاد في تحصيله، إذ المقصود نفي كمال الإيمان، وليس نفي الإيمان بالكلية، وأَدْخَل حرف الغاية على فعل التكوين مع التعبير عن المسند باسم التفضيل في قوله "**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ**"؛ ليحرص كل مسلم على أن يكون حب الرسولﷺ متغلغلا في كيانه، وتمتزج به شخصيته، وأن يرتفع هذا الحب إلى درجة لا يصل إليها أقرب الناس إليه وأعلاهم منزلة لديه، ومن ثم ذكر في المفضل عليه الوالد والولد دون غيرهما؛ لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز عنده من نفسه، ولهذا أيضا لم يذكر النفس والأهل والمال في هذا الحديث، أو اكتفى بذكرهم في أحاديث أخرى، كحديث

(١) البخاري- كتاب بدء الوحي- باب حب الرسول ﷺ من الإيمان- رقم ١٤.
(٢) ينظر: عمدة القاري ١/ ٣٨٤، والمفهم ١/ ١٤٠.

عمر بن الخطاب وغيره[(١)]، "ولم يذكر ﷺ "الأم" لأنها تدخل في لفظ "**الوالد**" إن أريد به من له ولد، أو اكتفاء بذكر الأب، كما يكتفي بذكر أحد الضدين عن الآخر، وقدم "**الوالد**" مع أن محبة الإنسان ولدَه أعظمُ من محبته والده غالبا، لأن بعض الناس لا ولد له، وكل واحد له والد، فقدم الأعم الأكثر وقوعًا على غيره"[(٢)]، ومن كان كذلك كان حب الرسول ﷺ مقدما عنده على حب غيره من الناس أجمعين، كما اشترط في حديث أنس ﷺ[(٣)].

وبهذا يكون قول النبيﷺ "**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ...**" قسما على ما سبق بيانه، مفيدا الإعلام بأهمية المقسم عليه، وإثارة المتلقي وتهييجه إلى أن تكون محبة الرسولﷺ عنده راجحةً على محبة كل من ذكرهم الحديث تصريحا أو إشارة، وفيه أيضا تأكيد انتفاء الإيمان عمن لا يحب رسول الله ﷺ بالكيفية المذكورة، بجانب الترهيب من مخالفة القسم بتقديم محبة أحد من الناس- أيا كان- على محبتهﷺ، وفيه كذلك دعوة المسلمين إلى أن تتماهى أفعالهم مع أوامر المصطفى ونواهيه، وأن يتوافق هوى نفوسهم مع شريعته، برهانا على صدق محبتهم له، والتزاما بقوله في حديثه "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ

---

(١) عَنْ زُهْرَةَ بْن مَعْبَدٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّﷺ "لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ"، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّﷺ " الآنَ يَا عُمَرُ". البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ٦٦٣٢، وعَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ- وَفِى حَدِيثِ عَبْدِ الْوَارِثِ الرَّجُلُ- حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». مسلم- باب محبة رسول الله أكثر من الناس أجمعين- رقم ١٧٧.

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري- شمس الدين السفيري ٢١/ ٣ وما بعدها- بتصرف.

(٣) عن أنس- ﷺ- أن رسول اللهﷺ قال"لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ". البخاري- كتاب بدء الوحي- باب حب الرسولﷺ من الإيمان- رقم ١٥.

تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ"، إذ المحبة تقتضي المتابعة والموافقة، وقسر النفس على ما يرضاه المحبوب، وبه يظهر وجه إيثار القسم بالصيغة الواردة.

*****

وَعَنْ أَنَسٍ- رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ- أَوْ قَالَ لأَخِيهِ- مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١).

والغرض منه بيان أنّ حبَّ المسلم "أن يحصل لأخيه نظيرُ ما يحصل له، سواء كان ذلك في الأمور المحسوسة أو المعنوية"(٢) شرط من شروط الإيمان، وسبب من أسباب اكتماله، تثبيتا لهذا المعنى في نفوس من فهمه، وتصحيحا له عند غير الفاهمين، ومن ثم أدخل ﷺ حرف النفي على المضارع الواقع في جواب القسم "**لاَ يُؤْمِنُ**" "مبالغة، وكأن هذه المحبة هي الركن الأعظم في الإيمان"(٣)، وأسنده إلى الاسم النكرة "**عَبْدٌ**" أو الاسم المضاف إلى ضمير المخاطبين "**أَحَدُكُم**"- كما ورد في بعض الروايات- لتكون المبالغة والتهييج إلى إتيان فعل الإيمان، والعمل على تحصيله شاملا جميع المسلمين من السامعين وغيرهم بلا استثناء، كما أَدْخل حرف الغاية على المضارع المتعدي إلى المجرور بلام الاختصاص "**حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ- أَوْ قَالَ لأَخِيهِ**" لما يفيده من تجدد المحبة في كل المواقف والأحوال، وفي التعبير عن المسلم بلفظ "**أَخِيهِ**" تقوية لهذا الحب، وتأكيد لوقوعه في محله، لما فيه من التذكير برابطة الأخوة في الدين التي هي أقوى الروابط، وأعظمها أثرا في تلاحم المؤمنين وتماسكهم، وعبر عن المفعول بالاسم الموصول العام "**مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**" ليكون الحب شاملا كل الأمور التي تتحقق بها المصلحة في الدين والنفس والعقل

(١) مسلم- باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ خِصَالِ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لأَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ- رقم ١٨٠.

(٢) شرح صحيح البخاري للسفيري ٢/ ٦.

(٣) عمدة القاري ١/ ٣٧٩- بتصرف.

والمال والعرض، ويستنبط منه بطريق المخالفة "أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه... لأن حب الشيء مستلزم بغض نقيضه"(١).

وبهذا يكون قسم النبيﷺ في قوله "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ...**" هنا دالا على ما يلي:-

**أولا**- تأكيد المقسم عليه لكونه من الأمور الرئيسة، التي يجب تنبيه المسلمين إلى أهميتها، لأنهم لم يعتادوها من قبل، أو لأنّها لمّا تتحققْ في المجتمع على النحو الذي يريده الشارع الحكيم.

**ثانيا**- الترهيب من مخالفة هذا القسم، لما يترتب عليه من نقص الإيمان وعدم اكتماله، ولما فيه من دلالة على عجز العبد عن جبر إيمانه بأي عمل سواه، مهما كان عظيما.

**ثانيا**- حثُّ المسلم وإلهابُه إلى أن يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ودعوته إلى تزكية نفسه وترويضها لكي تتخلق بهذا الخلق الراقي، لما لها من أثر بارز في التحلي به، لا سيما وأنها لم تتعود عليه، ولم تره واقعا عمليا في المجتمع، ولم يدعها أحد من قبل إلى مثله، ومن ثم أوثر القسم النبوي بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" دون غيرها.

*****

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**»(٢).

وفيه يقصد الرسولﷺ إلى حضّ المسلمين على التعفف عن المسألة والتنزه عنها، ويوجههم إلى ما يحقق لهم الغنى، ويحفظ عليهم ماء الوجه، من خلال التشجيع على العمل باليد واستعذاب ما يُبذل فيه من مجهود مهما كان

(١) السابق.

(٢) البخاري- كتاب بدء الوحي- باب الاستعفاف عن المسألة- رقم ١٤٧٠.

شاقا عنيفا، وتحقيقا لهذا الغرض جاء جواب القسم مؤكدا باللام، ومُعبَّرا فيه بفعل الأخذ "**يَأْخُذ**" الدال ببنائه ومعناه على الجد في الأمر، وعدم التهاون فيه(١)، تأكيدا للمعني الذي يرشد إليها التوجيه الكريم، وحثا للمسلمين على العزيمة في تنفيذه، وعدم التردد في قبوله، لأنه يعالج مفاهيم مغلوطة، وتصورات باطلة، يؤثرها الناس، ويميلون إليها؛ طلبا للراحة، ورغبة في تحصيل المال بالطرق السهلة، والوسائل السريعة، كما جاء الجوابُ معتمدا على المقابلة التصويرية بين حالتين:- **الأولى**- لمسلم يخرج من بيته مصطحبا حبلا، ليربط به الحطب الذي يجمعه من الصحراء أو الجبل أو غيرهما، ثم يحمل ما جمعه على ظهره، ليبيعه ويقضي بالمال الذي باعه به ضرورياته، وذلك في قوله " **لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ**"، و**الأخرى**- لمسلم يسأل الناس من مالهم، فبعضهم يعطيه، وبعضهم يمنعه، في قوله "**يَأْتِيَ رَجُلاً فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**"، وهي مقابلة تتسم بما يلي:-

- أنها اعتمدت في طرفيها على الفعل المضارع "**يَأْخُذَ- يَحْتَطِبَ**"، "**يَأْتِيَ- يَسْأَلَهُ**"، لما يمتاز به- بجانب الدلالة على تجدد الفعل وتتابع القيام به يوميا- من جذب المتلقي، وإبقائه في حالة من المعايشة والتحفز إلى التقاط المغزى الذي يريد المتكلم إيصاله إليه، لأن من خصائصه استحضار المعاني المتحدث عنها كأنها حاضرة ماثلة، مما له كبير الأثر في المخاطب.

- أنها عبرت عن كل واحد من الطرفين بجمل مطابقة لما يقابلها في المعنى دون اللفظ، لما يقوم به هذا الأسلوب التقابلي من الإيضاح والبيان مع الاحتفاظ لكل طرف بما يخصه، من غير تقيُّد بالألفاظ المتضادة التي قد لا تحقق الغرض المقصود هنا.

(١) ينظر: مقاييس اللغة- مادة أخذ.

– على الرغم من أن الجمع بين الصورتين المتناقضتين ينتج عنه دائما زيادة حسن الحسن، وتأكيد قبح القبيح، إلا أن المقابلة هنا امتازت– بجانب ذلك– بالتصريح بأفضلية الطرف الأول، في قولهﷺ "**خَيْرٌ لَهُ...**"، ليكون في التصريح مع التلميح ضرب من تأكيد المعنى الذي يقصد إليه البيان مرتين: **إحداهما**– على سبيل التلميح والإثارة، و**الأخرى**– عن طريق التصريح والذكر، فيتمكن في الذهن أيما تمكن، ويقبل المتلقي عليه مطمئنا إليه وإلى فوائده.

– وكما امتازت المقابلة بالتصريح بأفضلية الاحتطاب، على الرغم مما فيه من مشقة، دل عليها التعبير بقوله "**عَلَى ظَهْرِهِ**" في الطرف الأول، امتازت بالطباق بين فعلي الإعطاء والمنع "**أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**" في طرفها الثاني بغرض تأكيد ذم المسألة، على الرغم من دلالة تقديم فعل الإعطاء على أن حصول النوال أكثر توقعا من حصول المنع والحرمان، ما يعني"أَنَّهُ إِذَا كَانَ الِاحْتِطَابَ أَفْضَلُ مِنْ السُّؤَالِ مَعَ الْعَطِيَّةِ فَإِنَّهُ مَعَ الْمَنْعِ أَوْلَى"(١). وفيه دلالة على ذم المسألة على كل حال، لما يدخل على السائل من الذل فى سؤاله، وفى الرد إذا رُد خائبًا، ولما يدخل على المسؤول من الضيق فى ماله إن هو أعطى كل سائل(٢).

ومن ثم يكون قسم النبيﷺ بالصيغة الواردة في هذا المقام دالا على ما يلي:–

**أولا**– شدةُ الترغيب في العمل والاحتراف، على الرغم مما فيه من مشقة وامتهان، وشدةُ التنفير من المسألة لما فيها من ذل السؤال وألم الخيبة والحرمان.

**ثانيا**– تحذيرُ القادرين على العمل من اللجوء إلى سؤال الناس، وإرشادُهم إلى ما يكفيهم، ويحفظ عليهم ماء وجوههم.

(١) المنتقى في شرح الموطأ– سليمان بن خلف الباجي ٤/ ٤٧٤..
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣/ ٥٠٣.

**ثالثا**- تأكيدُ المقسم عليه، والإشارةُ إلى كراهة النبيﷺ السؤالَ وعدمِ رضاه عمن يلجأ إليه، ومن ثم رأى العلماء أن المسألة "على ثلاثة أوجه: حرام، ومكروه، ومباح، فالحرام- لمن سأل وهو غني ... أو أظهر من الفقر فوق ما هو به، والمكروه- لمن سأل وعنده ما يمنعه عن ذلك، ولم يظهر من الفقر فوق ما هو به، والمباح- لمن سأل بالمعروف قريبا أو صديقا، وأما السؤال عند الضرورة فواجب لإحياء النفس، وأما الأخذ من غير مسألة ولا إشراف نفس فلا بأس به"(١)، مما يجعل أثر النفس في التعفف عن السؤال أو التدني إليه واضحا جليا، ويُبرر إيثار القسم بالصيغة الوارد على غيرها.

*****

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ قَالَ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(٢).

لمّا شَكَا الصحابةُ إلى رسول اللهﷺ أنهم يصيبون من الذنوب(٣) قال هذا الحديث، قاصدا منه تصحيح هذا المفهوم بحثّ المخطئين على الاستغفار وعدم القنوط من رحمة الله تعالى، وفيه أقسم قائلا "**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ**" على أن ارتكاب الخطأ واقتراف الذنوب سمة بشرية، وفطرة إنسانية؛ من أجل ألا يتملكهم اليأس، لا سيما أن شكواهم إليه دليل على استعظامهم ما اقترفوا، وخشيتهم أن يعذبهم الله تعالى به، ظنا منهم أن المسلم لا يخطئ، ولا ينبغي له أن يقترف ذنبا، أو يهفوَ كما يهفو غيره.

ولأجل محو هذا الاعتقاد الخطأ جاء جواب القسم معتمدا على الشرط الافتراضي، بـ "**لَو**" الدال على امتناع الجواب لامتناع الشرط(٤)، مع المجيء

(١) عمدة القاري ١٣/ ٤٩٤.
(٢) مسلم- باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة- رقم ٧١٤١.
(٣) اللمع في أسباب ورود الحديث الشريف للسيوطي ١/ ٧٨.
(٤) مغني اللبيب- ابن هشام ١/ ٣٣٧ وما بعدها.

بفعل الشرط مضارعا منفيا بـ "**لَمْ**" التي لا يتوقع معها حصول الفعل(١) وإسناده إلى ضمير المخاطبين في قوله "**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا**"؛ للإشارة إلى استحالة وجود أحد مُنزَّهٍ عن الخطأ، معصومٍ من الزلل، من الشاكِين بصفة خاصة ومن البشر بصفة عامة، وعبّر في الجواب بالماضي المقترن بلام التوكيد، المسند إلى اسم الجلالة العلم، مع تعديته إلى ضمير الشاكِين أيضا بحرف الجر في قوله "**لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ**" لتأكيد ترتب الجواب على عدم اقتراف الذنب، من أجل بث الأمل في نفوس المخطئين المستعظمين خطاياهم، وتطمينهم إلى أن ذلك متوقع حصوله منهم، وأنه لا مجال لاستغرابه أو إنكاره، وفيه كذلك تمهيد لما يأتي بعده من التوجيه إلى التوبة والاستغفار، ومن البدهي أن ما يقال لهم يتم تعميمه على غيرهم، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو معروف.

وعطف على الجواب فعلَ المجيء مؤكدا باللام، ومسندا إلى ضمير الحق جل جلاله، مع تعديته بالباء إلى المجرور الموصوف بالمضارع الدال على التجدد، وعَطَفَ عليه بالفاء ما يدل على تجدد توبتهم مع كل ذنب، وسرعة إخباتهم وخضوعهم وانكسارهم، في قوله "**وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ**" تتميما للمعنى(٢)، ببيان أن إصابة الذنوب من الأمور التي فطر الله عليها البشر، وبها يتجلى عفوه تعالى وغفرانه وحسن صنيعه مع خلقه، كما أنها تُظهر أن الله جل شأنه يحب أن يتجاوز عن المسيء، كما يحب أن يحسن إلى المحسن، ولا يخفى ما فيه من إرشاد إلى الاستغفار والتوبة عقب وقوع الذنب مباشرة، والإلماح إلى عدم التسويف أو الانشغال عنه، وجاء بقوله "**فَيَغْفِرُ لَهُمْ**" معطوفا على ما قبله بفاء التعقيب؛ تقويةً لرجاء

(١) السابق ١/ ٨٧١.

(٢) التتميم معناه: أن توفى المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظًا يكون فيه توكيده إلا تذكره. الصناعتين- أبو هلال العسكري ١١٨.

المذنب في العفو، إذا ما كان عمله بعد اقتراف الذنب على النحو المذكور من الاستغفار والانكسار، قال بعض العلماء "هذا دليل على أن المراد من العبد الذل، فإن المذنب منكسر لذنبه، منكس الرأس لجرمه، وبهذا يتضح ذل العبودية، ويظهر عز الربوبية"(١).

ومن ثم يكون قسم النبيﷺ بالذي نفسه بيده في هذا السياق داعيا المخطئين من المسلمين إلى ما يلي:-

**أولا**- عدم اليأس أو القنوط من رحمة الله تعالى؛ بسبب إصابة بعض الذنوب مهما كانت عظيمة، إذ لا ينبغي للإنسان أن يتعاظم ذنبا على الله تعالى.

**ثانيا**- بث الأمل واليقين في نفوسهم بأن اقتراف الذنوب من الأمور التي جُبلت عليها نفوس البشر، وأنه ليس مستغربا منها، ولا مما ينكر عليها الضعف فيه، كما أن في خطئها تفعيلا لصفتي عفو الله تعالى ومغفرته وعدم تعطيلهما.

**ثالثا**- التوجيه إلى تزكية النفس بالاستغفار والخضوع والانكسار عقب الوقوع في المعصية مباشرة، لأن لقيامها بذلك وعدم توانيها عنه أثرا عظيما في غفران الله تعالى لها، كما أنه برهان صدق على ندمها، والاعتراف بضعفها، والإقرار بحاجتها إلى ربها ومولاها، ولعل ذلك من أوجه إيثار القسم بالصيغة الواردة على غيرها، "قَالَ الطِّيبِيُّ: لَيْسَ الْحَدِيثُ تَسْلِيَةً لِلْمُنْهَمِكِينَ فِي الذُّنُوبِ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاَللَّهِ... بَلْ بَيَانٌ لِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَجَاوُزِهِ عَنْ الْمُذْنِبِينَ لِيَرْغَبُوا فِي التَّوْبَةِ"(٢).

*****

وعَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ- وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِﷺ قَالَ- لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا

(١) كشف المشكل من الصحيحين- ابن الجوزي ١/ ١٠٤٣.
(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي- للمباركافوري ٦/ ٣١٧.

تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**وَمَا ذَاكَ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(١).

أنكر حنظلةُ الأُسيدي- ﷺ- على نفسه الحالة التي يكون عليها كلما ابتعد عن رسول اللهﷺ، وخاف أن يكون ذلك نوعا من النفاق، ودفعه خوفه إلى اتهام نفسه به عندما سأله أبو بكر عن أحواله، مستعملا أسلوب المقابلة الذي يزيد النفوس بصرا بالحقائق، لجمعه بين المتناقضات التي يبرز من خلالها حسن الحسن، ويعظم بإزائه قبح القبيح، فقال "نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ" مكنيا به عن حالة الخشوع والخضوع والرقة وزيادة الإيمان التي تحصل له ولغيره من المؤمنين عندما يستمعون الذكرى من رسول اللهﷺ، ومشبها حالتهم تلك بحال من يرى الجنة والنار رأي العين، ما يجعلهم في إقبال على الآخرة وإدبار من الدنيا، وذكر في مقابِلِهِ قولَه "فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا"، مكنيا بذلك عن الانشغال بالأزواج والأولاد والأموال، مما يعدُّه إقبالا على الدنيا ونسيانا للآخرة، وهما حالتان متناقضتان، استوجبت الثانية منهما أن يتهم نفسه بالنفاق، وأن يعيد ذلك- تأكيدا له- أمام رسول اللهﷺ.

(١) مسلم- باب فَضْلِ دَوَامِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ فِى أُمُورِ الآخِرَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَجَوَازِ تَرْكِ ذَلِكَ فِى بَعْضِ الأَوْقَاتِ وَالاِشْتِغَالِ بِالدُّنْيَا- رقم ٧١٤٢.

ومن ثم جاء بيان النبيﷺ في هذا السياق تصحيحا لمعنى النفاق، وضبطا للمراد به، وحثا للمسلمين على إحداث نوع من التوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن، وكان قَسَمُهﷺ "**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ...**" أسلوبا مهيمنا على بيانه القاصد إلى توصيل هذا المعنى، لما فيه من تأكيد المقسم عليه، والحث على تلقيه بالقبول، وللتحذير من المغالاة في الدين والتشديد على النفس، رعايةً لحال المخاطب القَلِقِ مما ينتابه إذا بعد عن رسول اللهﷺ وتبشيرا له بعدم النفاق، وحثا له على تزكية نفسه بالحرص على التزام ما يكون عليه عند رسول اللهﷺ من حضور القلب، والذكر باللسان والجنان، لما لذلك من أثر كبير في بقائها على تلك الحال، مهما بعد صاحبها عن رسول الله ﷺ، حتى يأذن الله تعالى لها بلقائه، وبذا يتضح وجه إيثار القسم بالصيغة الواردة.

وجاء الجواب معتمدا على الشرط بأداتين: إحداهما- تفيد الشك، والأخرى- تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، مع التعبير بالمضارع الدال على تجدد تحلّيهم بما يكونون عليه عند رسول اللهﷺ من الخشية والذكر في كل وقت وحين "**إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ**"؛ للإلماح إلى أن المداومةَ على تلك الحالة من الإقبال على الآخرة ونسيان الدنيا ومتطلباتها، وإهمال شأنها أمرٌ مشكوكٌ في حصوله، إن لم يكن مستحيلا في حق البشر، لأن الله تعالى فطرهم على الأمرين معا، قال تعالى: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"(الحجر ٧١-٧٢)، وقال أيضا "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"(القصص ٧٧)، ولا يخفى ما في التعبير بحرف الجر "**عَلَى**" الذي يفيد الاستعلاء من دلالة على الوصول في هذه الحالة إلى قمتها، وتحقيق أعلى درجاتها، حال البعد عن رسول اللهﷺ، يقويه أيضا التعبير بفعل التكوين "**تَكُونُونَ**" الدال على أن تلك الحالة اختلطت بكيانهم، وصارت لا تنفك عنهم، ولا ينفكون عنها.

وجاء جواب الشرط ماضيا مؤكدا باللام "**لَصَافَحَتْكُمُ**"؛ لتأكيد ترتب حصوله على حصول الشرط، وفي إسناده إلى "**الْمَلاَئِكَةُ**" مع تعديته إلى الفُرش والطُرق بحرفي الجر "**عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ**" دلالة على حصول المصافحة في الواقع والمشاهدة في جميع الأحوال، مبالغةً في الاحتفاء والتكريم والتقدير، كما جاء قولهﷺ "وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً" مشتملا على حرف الاستدراك المقترن بالواو[1] "**وَلَكِنْ**"؛ لتنبيه المتلقي ولفت نظره إلى ما يأتي بعده من كلمات لها دلالات مهمة في السياق، يقويه في زيادة التنبيه والإثارة نداء المخاطب "**يَا حَنْظَلَةُ**" بحرف الياء، الدال على بعده عن الصواب فيما قال متهمًا به نفسه.

وبعد الإبلاغ في التنبيه جاء التعبيرُ النبوي الدالُّ على ضرورة الموازنة بين مطالب الروح ومطالب الجسد، أو بين مطالب الآخرة ومطالب الدنيا، وهو قوله "**سَاعَةً وَسَاعَةً**"، ليعلم حنظلةُ بخاصة والمسلمون بعامة أن الانشغال بالحلال من أمور الدنيا لا يعد نفاقا، ولا يدخل صاحبه في زمرة المنافقين، إذ المعنى: "لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُنَافِقًا بِأَنْ يَكُونَ فِي وَقْتٍ عَلَى الْحُضُورِ وَفِي وَقْتٍ عَلَى الْفُتُورِ، فَفِي سَاعَةِ الْحُضُورِ تُؤَدُّونَ حُقُوقَ رَبِّكُمْ، وَفِي سَاعَةِ الْفُتُورِ تَقْضُونَ حُظُوظَ أَنْفُسِكُمْ"[2]، وكرر النبي ﷺ ذلك ثلاثا ليتآزر التكرار مع التنبيه والشرط والقسم المهيمن من أجل تطمين حنظلة وغيره على رسوخ قدمهم في الإيمان، مع حثهم على الإكثار من ذكر الله تعالى؛ ليكون ذكرهم له حصنا لهم من الغفلة والانجراف.

*****

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِىِّﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلاَ وَرِقًا غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى الْوَادِى وَمَعَ رَسُولِ

(١) مغني اللبيب ١/ ٣٨٣.
(٢) تحفة الأحوذي ٦/ ٣٠٦.

اللَّهِﷺ عَبْدٌ لَهُ وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُذَامٍ يُدْعَى رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ مِنْ بَنِى الضُّبَيْبِ فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِىَ قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللَّهِﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ فَرُمِىَ بِسَهْمٍ فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ فَقُلْنَا هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**كَلاَّ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ**». قَالَ فَفَزِعَ النَّاسُ. فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ. فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: «**شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**»[(١)].

في هذا الحديث أخبر رسول اللهﷺ أن الشملة، (وهي كساء يُؤتزر به)[(٢)]– التي أخذها عبدُه يوم خيبر، من غير أن تصيبها المقاسم– حالت بينه وبين منازل الشهداء، كما أنها تحولت إلى نار يُعذَّب بها، على سبيل الحقيقة، أوأنها ستكون سببا لعذابه بالنار يوم القيامة على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية، أو اعتبار ما يكون؛ لكونها من الغلول الذي حرمه الله تعالى، وأقسمﷺ على ذلك بعد أن صحح ما اعتقده أصحابُه من أن موته بسهم من سهام الأعداء قد جعله في عداد الشهداء، مستعملا لذلك "**كَلاَّ**" الموضوع للزجر والردع، و ردّ الكلام الأول[(٣)]، ثم أقسم قائلا "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا**" مؤكدا الجواب بثلاثة مؤكدات، هي: إن واللام والجملة الاسمية ليؤازر التوكيدُ القسمَ في تحقيق تحوّل الشملة التي كان يأتزر بها إلى نار تحرقه، بعد أن كان الناس يظنونه شهيدا في أعلى منازل الجنة وأرقى درجاتها، ولا يخفى ما في تنكير "**نَارًا**" من الإلماح إلى أنها نارٌعظيمةٌ، لا تحيط بحجمها العبارة، ولا يستطيع أحد أن يصف ألمها وإحراقها.

ثم أخرج النبيﷺ أصحابه من الحيرة التي انتابتهم، والدهشة التي أصابتهم بسبب قَسَمِه على ما سبق توضيحه ببيان السبب الذي جعل الشملة التي كان يرتديها عبدُه تتحول إلى نار محرقة، وخرج بسببها من عداد

(١) مسلم– باب غِلَظِ تَحْرِيمِ الْغُلُولِ وَأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ– رقم٣٢٥.
(٢) إكمال المعلم– للقاضي عياض ١/ ٢٦٨.
(٣) يراجع: الجنى الداني ٩٨.

الشهداء، وذلك في قوله "**أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ**" والذي جاء به مفصولا عما قبله كما يفصل الجواب عن السؤال، فيما يعرف بشبه كمال الاتصال، الذي يستعمل عندما يراد جذب المتلقي وإثارته إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك ما يرمي إليه، وعبر فيه بقوله "**أَخَذَهَا**" لإبراز مدى حرصه وتعجله في الحصول عليها، وخشيته أن تذهب لغيره عند التقسيم، إذا الأخذ معناه: حوز الشيء وجبيه وجمعه(١)، وقوله "**لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ**" يدل على أن غنائم خيبر كانت لمّا تقسم، وقول الراوي: فَفَزِعَ النَّاسُ. فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ، دال على أن قسم النبيﷺ قد ترك الأثر المراد في نفوس المسلمين ففزعوا وأحضروا ما أخذوه من الغنائم، حتى وإن كان حقيرا، إذ الشراك هُوَ: السَّيْر الْمَعْرُوف الَّذِي يَكُون فِي النَّعْل عَلَى ظَهْر الْقَدَم(٢)، وبذا يكون الباعث على قسم النبيﷺ بالذي نفسه بيده في هذا السياق ما يلي:

**أولا**– تأكيد حرمة الغلول، سواء أكان المغلول عظيما أم حقيرا، كبيرا أم صغيرا.

**ثانيا**– تأكيد أن الغالّ يعذب بما غلّ، كما ورد في قوله تعالى"وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (آل عمران ١٦١).

**ثالثا**– الترهيب من الغلول ببيان أنه يمنع إطلاق اسم الشهيد على من فعله إذا قتل، والحث على رد ما أُخذ غلولا، وبيان أن من غل شيئا وقام برده سقطت عقوبته.

ووجه اقتضاء المقام القسم بالصيغة المذكورة قطعُ طريق الأخذ من الغنائم قبل التقسيم بأية صورة من الصور، وبأي شكل من الأشكال، لأن السكوت عن أَخْذ ما كان صغيرا قد يُسوّغ للنفس البشرية– التي من سماتها

(١) مقاييس اللغة– مادة أخذ.

(٢) المنهاج ٢٢٩/١.

حب الطعام والزينة- الطمعَ فيما هو أكبر وأعظم، ومن ثم كان القسم النبوي بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" مناسبا للحالة، ودالا على أن ما أُخبر به من عقاب ذلك الغالّ مما أوحى به إلى الرسول خالقُ النفوس، العالمُ بحقيقة أمرها.

*****

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِﷺ وسلم ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى إِمَامُكُمْ فَلاَ تَسْبِقُونِى بِالرُّكُوعِ وَلاَ بِالسُّجُودِ وَلاَ بِالْقِيَامِ وَلاَ بِالاِنْصِرَافِ فَإِنِّى أَرَاكُمْ أَمَامِى وَمِنْ خَلْفِى**- ثُمَّ قَالَ- **وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». قَالُوا وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «**رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ**»(١).

في هذا الحديث رأى النبيﷺ بعض أصحابه يسبقونه بالركوع والسجود، فلما انتهى من صلاته أقبل عليهم بوجهه ناصحا ومصوبا طريقةَ صلاتهم، ومرشدا إلى ما يساعدهم على ذلك، وجاء بيانه مشتملا على جزئيتين:- إحداهما- للنصح والتصويب، والأخرى- للقسم.

فيما يخص النصح والتصويب بدأه النبي ﷺ بالنداء، لما يمتاز به من إيقاظ المتلقي وتنبيهه إلى أهمية ما يأتي بعده من أوامر أو نواه، وآثر نداءهم بصيغة "**أَيُّهَا**..."لما تتضمنه من معاني التفخيم والتنبيه والتوكيد، المفيدة والمؤثرة في هذا السياق، حيث إنها تتكون من "يا" و "أي" و"ها".

فـ "**يَا**" من "حروف التنبيه التي للبعيد، لجواز مد الصوت بالألف ما شئت، ثم كثر استعمالها حتى صارت لنداء البعيد أو من في حكمه، كالنائم والساهي والغافل أو الحاضر معك، وهى أم حروف النداء"(٢) "وأكثرها استعمالا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها، وقد ينادى بها القريب توكيدًا"(٣)، أما

(١) مسلم- باب النَّهْيِ عَنْ سَبْقِ الإِمَامِ بِرُكُوعٍ أَوْ سُجُودٍ وَنَحْوِهِمَا- رقم ٩٨٩.

(٢) رصف المباني في شرح حروف المعاني- للمالقي- تحقيق أحمد الخراط ٤٥١- ٤٥٢.

(٣) مغنى اللبيب ٤٢٩/٢.

"**أَيْ**" فهو: اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، وهو واسطة إلى نداء ما فيه أل، ولابد من إردافه بنعت يزيل إبهامه، وإلا لا يُعلم المقصودُ بالنداء[١]، فـ "**أَيْ**" هو: الذي يعمل فيه حرف النداء، والاسم التابع له صفته التي توضحه وتبينه، والتوضيح بعد الإبهام فيه من التأكيد والتمكين ما فيه، "فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته، فإذا ما ذكر موضحا قرَّ في النفس وتمكن منها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم"[٢]، و"**هَا**" حين تدخل على نعت "أَيْ" في النداء، فهي واجبة التنبيه على أنه المقصود بالنداء[٣]، وهي في هذه الصيغة تعاضِدُ حرف النداء وتقويه، فتزيده قوة وتأكيدا، والسر في كثرة النداء بهذا التركيب في كتاب الله المجيد؛ هو "استقلالُه بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأن كلّ ما نادى الله له عباده- من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه- أمورٌ عظام، وخطوبٌ جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، إذ هم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ"[٤].

وجاء نداؤهﷺ للمصلين من غير أداة؛ للإشارة إلى قربهم منه، وحبه لهم، وحرصه على توجيههم إلى ما يُرجى قبوله، ويقربهم من ربهم، وغير ذلك من المعاني التي قد يحول ذكر الأداة دون الإشارة إليها في سياق التصويب والتعليم، وآثر النداء بلفظ "**النَّاسُ**"، جريا على عادته في التعميم وعدم التخصيص إذا أراد النصح، ولما يتضمنه لفظ "**النَّاسُ**" من معان أشار إليها الراغب بقوله "والناس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس

(١) الأزهية في علم الحروف- على بن محمد الهروي- تحقيق عبد المعين الملوحى١٠٧- مجمع اللغة العربية بدمشق.
(٢) الإيضاح- شرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي٢/١١٧- مكتبة الآداب- القاهرة.
(٣) مغني اللبيب ٢/ ٤٠٣.
(٤) الكشاف ١/ ٩٠.

تجوّزا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانيّة، وهو وجود العقل، والذّكر، وسائر الأخلاق الحميدة، والمعاني المختصّة به"(١).

وبعد النداء جاء النهي "**فَلاَ تَسْبِقُونِى بِالرُّكُوعِ...**" المتفرع عن جملة "**إِنِّى إِمَامُكُمْ**" التي تدل دلالة واضحة على ضرورة متابعة الإمام في جميع أعمال الصلاة من أولها إلى آخرها، لأن كونه إماما يوجب على المصلين اتباعه، ويُحرّم عليهم التقدمَ عليه أو مقاربتَه(٢)، واستعمل النهي لما فيه من حزم يحول دون حصول ذلك مرة أخرى، لكونه لا يرتبط بالوسع والاستطاعة كما سبق بيانه، ولما يوحي به من نكارة التقدم على الإمام وشناعته، قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ"(النحل ٩٠)، يقويه تعدية الفعل إلى ضميرهﷺ بصيغة التكلم "**تَسْبِقُونِى**" بما فيه من إشعار للمأموم بأنه يتقدم على إمام الأمة كلها، وهو رسول اللهﷺ، وفي ذكر المتعلق مفصلا مع إمكان الاستغناء عنه والاكتفاء بفعل النهي "**بِالرُّكُوعِ وَلاَ بِالسُّجُودِ وَلاَ بِالْقِيَامِ وَلاَ بِالاِنْصِرَافِ**" إيضاح لكيفية المتابعة مع النص عليها في كل الأفعال؛ إزالةً لما قد يحدث من لبس، وجاء بقوله "**فَإِنِّى أَرَاكُمْ أَمَامِى وَمِنْ خَلْفِى**" مؤكدا بإن ومفرعا عما قبله بالفاء التي للتسبب، جريا على عادة النبيﷺ البيانية في المجيء بما يوضح الباعث على أمره أو نهيه، ليزيد من الاقتناع به، ويثير المتلقي إلى امتثاله(٣)، وفيه إشارة إلى أن سبب إقبال النبيﷺ عليهم ونهيه لهم راجع إلى أنه شاهد بعينيه تلك الأخطاء أثناء

---

(١) المفردات– مادة نوس.

(٢) روى البخاري عن أنس أن رسول اللهﷺ قال: "إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا" البخاري– كتاب بدء الوحي– رقم ٣٧٨ .

(٣) أرى أن ميدان البحث البلاغي في حاجة إلى دراسة علمية تُعنَى بالبناء التركيبي للجمل الواقعة بعد الأمر والنهي في الحديث النبوي، لتكشف عن منهج الرسول وسياسته في أمر المؤمنين ونهيهم، ليتمثله الناس بجميع شرائحهم.

صلاته بهم إماما، وذلك من شأنه أن يجعل توجيهه أرجي بالقبول، لأنه يأتي عقب الخطأ مباشرة، كما أنه جاء بلغة يملؤها التقدير والحرص على صحة صلاتهم وقبولها. "قال النووي: معناه: أن الله تعالى خلق لهﷺ إدراكا... يبصر به مِن ورائِه، وقد انخرقت العادةُ له ﷺ بأكثر من هذا، وليس يمنع من هذا عقل ولا شرع، بل ورد الشرع بظاهره فوجب القول به. قال القاضي: قال أحمد بن حنبل وجمهور العلماء: هذه الرؤية رؤية عين حقيقة"(١).

---

أما قسمهﷺ "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**" فإن الباعث عليه في هذا السياق ما يلي:-

**أولا**- إلهاب المتلقين بخاصة والمصلين بعامة، وإثارة عزائمهم، واستنهاض هممهم إلى أن تكون صلاتهم محلاة بالخشوع، خالية من الغفلة وغياب العقل، الذي يعد التقدم على الإمام مظهرا من مظاهره، وبرهانا ساطعا على حصوله منهم، وهم وقوف بين يدي الله رب العالمين.

**ثانيا**- تقديم البرهان على حب النبيﷺ لأتباعه، وحرصه الشديد على نصحهم وتوجيههم إلى كل ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

**ثالثا**- تأكيد المعاني التي يتضمنها جواب القسم، اهتماما بها، ولأن فيها ما يعين على زكاة النفس ورقتها وإخباتها وخشوعها، وغير ذلك مما يساعد المسلم على الانتباه واليقظة والإقبال على الله تعالى ومتابعة رسولهﷺ أثناء العبادة بصفة خاصة، وفي كل أموره بصفة عامة، ومن ثم يتضح وجه إيثار القسم بالصيغة التي جاء عليها في هذا السياق.

وتحقيقا لهذه المعاني جاء جواب القسم معتمدا على الشرط الافتراضي، المُعبر فيه بالماضي المتعدي إلى الاسم الموصول بفعل الرؤية المسند إلى ضمير النبيﷺ "**لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ**" تفخيما وتهويلا لما رآه، وإيماء إلى عدم

---

(١) مشكاة المصابيح- للخطيب التبريزي ٣/ ١٧٩.

قدرتهم على تحمله وإطاقته، بجانب ما فيه من إثارة المتلقي وتشويقه إلى ترقب جملة الجواب، التي جاءت مشتملة على جملتين متقابلتين، عُطفت الثانية منهما على ما قبلها بواو المصاحبة، مع التعبير فيهما بالماضي المؤكد باللام "**لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**"، تأكيدا لهول ما اطلع عليه رسول الله ﷺ، وعظم ما يترتب عليه من آثار تتخلع لها القلوب، وتبكي لها العيون، وتقل معها البسمة، وتمتنع بها الغفلة، وتحصل بها اليقظة والانتباه في كل الظروف والأحوال.

ويعد سؤال المصلين عما رآه النبيﷺ أثرا واضحا من آثار تعبيره بالقسم والشرط والمقابلة في سياق النصح والتصويب، إذ قَالُوا وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ**»، وفي التصريح برؤيتهما بعد التلميح ما يكفي لكثرة البكاء شوقا، وقلة الضحك خوفا وفزعا، كما أنه يؤازر ما سبق من أساليب في تأكيد ضرورة الحرص على اليقظة والانتباه واستحضار الآخرة في العبادات وفي غيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث ورد عند البخاري في أكثر من باب بلفظ «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا**»(١)، ولا خلاف بين هذه الروايات والرواية التي معنا، لأن علمهﷺ يمكن أن يكون عن وحي، ويمكن أن يكون عن إلهام، ويمكن أن يكون عن رؤية، وليس ثمة شك فيما يقسم عليه، ويخبر عن علمه به بأي شكل من الأشكال.

*****

(١) البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ١٠٤٤، ٤٦٢١، ٥٢٢١، ٦٤٨٥، ٦٦٣١، ٦٦٣٧.

## المطلب الرابع

## موقع القسم وتأثيره

## في مقام الإخبار بالغيب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِﷺ قَالَ: «**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِى يَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلاَ يَرَانِى ثُمَّ لأَنْ يَرَانِى أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ**»(١).

في هذا البيان يحث النبيﷺ أصحابه على ملازمة مجلسه الشريف، والإكثار من مشاهدته ورؤيته، والحرص على ذلك في السفر والحضر، قبل أن يأتي يوم يندمون فيه على تقصيرهم في زيارته وملازمته، معبرا في جواب القسم بفعل الإتيان الدال على السهولة، والمؤكد باللام والنون "**لَيَأْتِيَنَّ**" لأنه إتيان يتسق مع سنة الله تعالى في خلقه، ومن ثم فهو مجيء يتسم بوجوب الوقوع وحتميته، وعُدِّي إلى ضمير المخاطبين بلفظ "**أَحَدِكُمْ**" دون "عليكم"، لما فيه من الإلهاب وشدة التأثير، بإثارة نوازع الفرد الكامنة، ومشاعره المتأججة، وتذكيره بما أنعم الله تعالى عليه واختصه به من صحبة الرسولﷺ، والحياة في زمانه، وتلك نعمة تستحق كثيرا من الحمد، ومزيدا من الشكر بكثرة رؤيته، وملازمة مجلسه أينما حل وأينما ارتحل، وهو معنى قد لا يتحقق إذا جاء التعبير بصيغة الجمع، يقويه تنكير المسند إليه "**يَوْمٌ**" الدال على عدم الإحاطة بميعاد ذلك اليوم وأوانه على وجه الدقة، كما أن فيه إشارة إلى اقترابه بناء على ما هو معروف من سنن الله تعالى في خلقه.

ويرى بعض العلماء أن في الحديث تقديما وتأخيرا، حيث أورد الإمام مسلم قول أبي إسحاق الدال على أن كلمة "**مَعَهُمْ**" مؤخرة عن موضعها: "الْمَعْنَى فِيهِ عِنْدِي لَأَنْ يَرَانِي مَعَهُمْ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْله وَمَاله، وَهُوَ عِنْدِي مُقَدَّم وَمُؤَخَّر"(٢)، وأيده القاضي عياض وزاد أن جملة "**وَلاَ يَرَانِى**" مقدمة على

(١) مسلم- باب فضل النظر إليهﷺ وتمنيه- رقم ٦٢٧٨.
(٢) مسلم- باب فضل النظر إليهﷺ وتمنيه- رقم ٦٢٧٨.

موضعها، إذ يقول: "معناه على التقديم والتأخير: لَأَنْ يَرَانِي مَعَهُمْ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْله وَمَاله، ثُمَّ لَا يَرَانِي، وَكَذَا جَاءَ فِي مُسْنَد سَعِيد بْن مَنْصُور: "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدكُمْ يَوْم لَأَنْ يَرَانِي أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُون لَهُ مِثْل أَهْله وَمَاله ثُمَّ لَا يَرَانِي"، أَيْ: رُؤْيَته إِيَّايَ أَفْضَل عِنْده، وَأَحْظَى مِنْ أَهْله وَمَاله"[1]، وقال النووي "وَالظَّاهِر أَنَّ قَوْله فِي تَقْدِيم: (لَأَنْ يَرَانِي)، وَتَأْخِير: (مِنْ أَهْله لَا يَرَانِي) كَمَا قَالَ. وَأَمَّا لَفْظَة (مَعَهُمْ) فَعَلَى ظَاهِرهَا، وَفِي مَوْضِعهَا، وَتَقْدِير الْكَلَام: يَأْتِي عَلَى أَحَدكُمْ يَوْم لَأَنْ يَرَانِي فِيهِ لَحْظَة ثُمَّ لَا يَرَانِي بَعْدهَا أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْله وَمَاله جَمِيعًا"[2].

والذي يبدو لي أنه ليس في الكلام تقديم أو تأخير، وأن قوله ﷺ "**وَلاَ يَرَانِى**" جملة حالية، جيء بها مقترنة بالواو للتنبيه إلى المعنى الذي تتضمنه من مجيء يوم لا يتمكن فيه المسلمون من رؤية الرسول ﷺ بعد أن كانوا ينعمون بمشاهدته، ويتمتعون بصحبته، ولو خلا الكلام من تلك الواو لفقد التعبير تلك المزية التي تلفت نظر المخاطبين إلى اغتنام حياته ﷺ وصحبته، يقول عبدالقاهر "وإذ قد رأيت الجمل الواقعة حالًا قد اختلف بها الحال هذا الاختلاف الظاهر، فلا بد من أن يكون ذلك إنما كان من أجل علل توجبه، وأسباب تقتضيه. فمحال أن يكون هاهنا جملة لا تصح إلا مع الواو، وأخرى لا تصلح فيها الواو، وثالثة تصلح أن تجيء فيها بالواو، وأن تدعها فلا تجيء بها. ثم لا يكون لذلك سبب وعلة. وفي الوقوف على العلة في ذلك إشكال وغموض. ذاك لأن الطريق إليه غير مسلوك، والجهة التي منها تعرف غير معروفة"[3].

---

(١) إكمال المعلم ٧/ ١٦٨.

(٢) المنهاج ١٥/ ١١٨.

(٣) دلائل الإعجاز ٦١، ويبدو لي أن اقتران الجملة الحالية بالواو أو عدم اقترانها بها موضوع يحتاج إلى دراسات بلاغية تكشف عن الفروق الدلالية والأسرار البلاغية المترتبة على كلتا الحالتين، ويمكن أن يكون القرآن الحكيم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي ميادين رحبة لمثل هذه الدراسات.

أما تعبيرهﷺ بحرف العطف الدال على الترتيب والمهلة في قوله "**ثُمَّ لأَنْ يَرَانِى أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ**" ففيه إلماح إلى أن ثَمّ تغييراتٍ ستحصل فيما اعتاده المسلمون قبل ذلك اليوم من رؤية النبيﷺ بسلاسة وسهولة ومن دون عوائق، فـ "لما لم تجر العادة بمثله جيء بـ "**ثُمَّ**" إيذانا بترتبه"[1]، مما يعني يعني الدعوة إلى ضرورة اغتنام فرصة وجوده بينهم، واهتبال لحظات بقائه فيهم، بالإكثار من زيارته، والنظر إلى وجهه، وحضور مجالسه، قبل أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه رؤيتهﷺ فقط أحب إلى المسلم من أهله وماله أجمعين، ويا ليتها تتحقق! وهذا يعني أن كلمة "**مَعَهُمْ**" في موضعها كما قال النووي، وليس فيها التأخير الذي ذهب إليه أبو إسحاق والقاضي عياض، رحمهم الله جميعا.

وبذا يكون غرض النبيﷺ من القسم في قوله "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِى يَدِهِ**"- والذي عبر فيه باسمه الشريف مضافا إلى نفسه، مع التعبير بالحرف الدال على الإحاطة بالنفس والاقتدار عليها- ما يلي:-

**أولا**- تأكيد بشريتهﷺ وخضوعه لسنة الله تعالى في خلقه، وعدم اختلافه في ذلك عن الناس.

**ثانيا**- بيان مدى الإنعام المتحقق ببعث النبيﷺ في المسلمين، وحثهم على شكر الله تعالى لذلك، امتثالا لقوله سبحانه "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ"(البقرة ١٥١-١٥٢).

**ثالثا**- إلهاب المسلمين وترغيبهم في اغتنام وجوده فيهم، واهتبال بقائه بينهم، بالتشرف برؤيته، والسعادة بزيارته، والتزكي بكلامه.

ووجه اصطفاء صيغة القسم التي وردت أن البيان هنا يومئ إلى وفاة النبيﷺ وصعود روحه الطاهرة ونفسه الزكية إلى بارئها، تأهيلا للمسلمين لتقبل

(١) مغني اللبيب ١/ ١٥٨.

ذلك متى حصل، وحثا لهم على اغتنام بقائه فيهم، ولما كان ذلك أمرا لم يَدُرْ بخلد المخاطبين، ولم يتصورْه بعضُهم أو يظنه احتاج معناه إلى التأكيد بالقسم بالصيغة الدالة على أن نفس النبيﷺ لا تخرج عن قبضة الله تعالى، شأنها في ذلك شأن نفوس سائر المخلوقات، وأن عليهم أن يفهموا ذلك ويتقبلوه.

*****

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِىُّﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَدْرِى الْقَاتِلُ فِى أَىِّ شَىْءٍ قَتَلَ وَلاَ يَدْرِى الْمَقْتُولُ عَلَى أَىِّ شَىْءٍ قُتِلَ**»(١).

في هذا الحديث أقسم النبيﷺ على أمر سيحدث في زمن الفتن التي تسبق قيام الساعة، حيث ورد في رواية أخرى بلفظ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ"(٢)، والباعث على قسمهﷺ بقوله "**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ**" في هذا السياق ما يلي:-

**أولا**- تأكيد وقوع فتنة القتل في آخر الزمان، والدعوة إلى الاستعداد لها(٣).

**ثانيا**- التحذير من الاشتراك فيها بأية صورة من الصور، وبأي شكل من الأشكال.

**ثالثا**- التنبيه إلى ضرورة التفكير في أي عمل قبل الإقدام عليه، والنظر فيما يترتب عليه من فوائد وآثار، حتى يعتادَ المسلمُ أن يَقدُرَ لكل أمر قدره، وبذا يسلم من هذه الفتنة إذا أطلّتْ برأسها.

---

(١) مسلم- كتاب الفتن- باب لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ مِنَ الْبَلاَءِ- رقم ٧٤٨٧.

(٢) مسلم- كتاب الفتن- باب لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ مِنَ الْبَلاَءِ- رقم ٧٤٨٨.

(٣) ثمة أحاديث كثيرة رواها الشيخان وغيرهما يحذر فيها النبي ﷺ أتباعه من الفتن، ويدعوهم إلى الاستعداد لها، ومنها هذا الحديث.

**رابعا**– التذكير بطلاقة قدرة الله تعالى، وامتلاكه نفس رسول اللهﷺ بخاصة، ونفوس خلقه بعامة، ترهيبا وتخويفا من سفك دماء الخلق بطريقة عشوائية، وبلا مسوغات شرعية، ولعل هذا مستفاد من تقديم القاتل على المقتول، مما يجعله منوطا بالقسم، لأن من يمارس قتل الناس خبط عشواء يظن ألن يقدر عليه أحد، ومن ثم أوثر القسم بهذه الصيغة لكونها تحمل رسالة شديدة التحذير من الإقدام على هذا الفعل، مضمونها: أن من فعل ذلك لن يفلت من قبضة الله ﷻ، وهو معنى لا يتحقق إذا جاء القسم بغير هذه الصيغة.

ولتحقيق هذه المعاني جاء جواب القسم مضارعا مؤكدا باللام "**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ**"، ومُعَبَّرا فيه بفعل الإتيان، الدال على يسر المجيء وسهولته، ليؤازر القسمَ في تقوية حصول هذه الفتنة، وتأكيد وقوعها، وأوثر التعبير عن المفعول بلفظ "**النَّاسِ**"، الذي قد يطلق ويراد به الفضلاء الذين يمتازون بالعقل والأخلاق الحميدة كما سبق ذكره، للإلماح إلى عظم هذه الفتنة، وشدة تأثيرها، وعدم نجاة أحد منها، وفي تعدية فعل الإتيان إلى الناس بحرف الاستعلاء "**عَلَى**" استعارة تصريحية تبعية في الحرف، شُبه فيها حصول الفتنة ووقوعها بالاستعلاء، بجامع التمكن، ثم سرى التشبيه من الجزئيات إلى الكليات، فاستعير "**عَلَى**" للوقوع والحصول، وعُبر به عنه، تأكيدا لما سبق ذكره من عظم هذه الفتنة، وصعوبة نجاة أحد منها، وفي تنكير المسند إليه "**زَمَانٌ**" دلالة على عدم الإحاطة بوقت وقوعها، وعدم الإحاطة بمدة بقائها، وفي التعبير به عنها دلالة إلى أن الفتنة الموضحة تشغل الناس زمان وقوعها، لدرجة تُنْسيهم كلَّ شيء غيرها مهما كان عظيما أو مؤثرا، ما من شأنه أن يقوي ضرورة الاستعداد لها.

ثم كانت جملة الصفة المعتمدة على المقابلة بين جملتي "**لاَ يَدْرِى الْقَاتِلُ فِى أَىِّ شَىْءٍ قَتَلَ وَلاَ يَدْرِى الْمَقْتُولُ عَلَى أَىِّ شَىْءٍ قُتِلَ**"، اللتين تم التعبير فيهما بفعل الدراية المنفي بالحرف المختوم بألف المد "**لا**"، وتكرارهما مع إمكان الاكتفاء بِأَحدَيْهما، وإسناد الأول منهما إلى "**الْقَاتِلُ**"، وإسناد الثاني إلى

"**الْمَقْتُولُ**"؛ لتأكيد انتفاء إحاطتهما بسبب القتل على أي وجه من الوجوه، إذ الدراية "علم يشتمل على المعلوم من جميع وجوهه"(١)، يقويه التعبير عن المعمول بالاسم النكرة "**شَـيْءٍ**"، وذلك دال على صعوبة تلك الفتنة وشدة تأثيرها، وإذهابها عقول الناس وأخذها بأفئدتهم، وتطويعها رغباتهم، وتلك أمور لا يستوعبها العقل ولا تقبلها الفطرة، وذلك أيضا مما دعا النبي ﷺ إلى أن يقسم على وقوعها بالله الذي نفسه بيده.

*****

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ**»(٢).

في هذا الحديث أيضا يتحدث النبيﷺ عن الفتن التي تسبق قيام الساعة، ويوضح أن من آثار شدتها وقوتها أن يغبط الأحياءُ أهلَ القبور، ويتمنوا أن يكونوا موتى مثلهم؛ بسبب كثرة المعاصي والخطايا، وغلبة الباطل وأهله، وعدم قدرتهم على مواجهة الظالمين، ويقسم على ذلك قائلا: "**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ**"؛ تحقيقا لعدة معان:-

**أولها**- تأكيد وقوع الفتن في آخر الزمان، تأكيدا يدفع الشك والريب، حتى يعلمها الناس بعامة والمؤمنون بخاصة، ولا يتفاجؤوا بحصولها في أي وقت من الأوقات.

**ثانيها**- تأكيد صعوبة هذه الفتن، وبيان مدى شدتها وعظم تأثيرها، وذلك مستفاد من تعبيرهﷺ بلفظ "**الرَّجُلُ**" الدال على بلوغه منزلة الكمال في الخِلقة والخُلق كما سبق توضيحه، إذ من البدهي أن حصول تمني الموت من أمثال

---

(١) الفروق اللغوية ٢٣٠.

(٢) مسلم- كتاب الفتن- باب لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ مِنَ الْبَلاَءِ- رقم ٧٤٨٦.

هؤلاء دال على حصوله ممن هم دونهم من النساء والصبيان من باب أولى، ما يعنى بلوغ الفتن ذروتها في الصعوبة والشدة والخطر.

**ثالثها**- إزالة ما يعتري المخاطب من الدهشة والاستغراب واستبعاد حصول هذه الأمور، لا سيما بعد انتشارالإسلام ودخول الناس فيه أفواجا كبيرة وأعدادا كثيرة، فيما يعرف بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر؛ بسبب ما ظهر عليه من علامات الإنكار(١).

**رابعها**- الدعوة إلى الاستعداد للفتن، باللجوء إلى الله تعالى والابتهال إليه بالنجاة منها، مع التسلح بالعمل الصالح، الذي ورد الحث عليه في أحاديث أخرى(٢).

ولكي يؤازر الجوابُ القسمَ في تحقيق الغرض من الحديث جيء به مضارعا منفيا بالحرف المختوم بألف المد "**لاَ تَذْهَبُ**"؛ لأنه يدل بمعناه وجرسه على بلوغ النفي حدا لا منتهى له، مما يعني الجزم بنفي ذهاب الدنيا قبل حصول هذه الفتنة، وعبر عن المسند إليه بلفظ "**الدُّنْيَا**"؛ لما فيه من معني الدناءة(٣)، الدال على تدني أخلاق الناس في آخر الزمان، وتكالبهم على الدنيا، وعدم اكتراثهم بأحكام الشرع وضوابطه، وربما قادهم ذلك إلى التفريط في الدين، واضطهاد من يذكِّرُهم به أو يتمسك بتعاليمه، ثم جيء بحرف الغاية "**حَتَّى**" للإشارة إلى أن هذه الفتنة سيطول أمدها، ويمتد زمانها، وأنها ستشتد وتتصاعد حتى يُؤْثِر الناسُ الموتَ على الحياة، وأوثر التعبيرُ بالمضارع "**تَذْهَبُ- يَمُرَّ- يَتَمَرَّغُ- يَقُولُ**"؛ لما يمتاز به من استحضار الحالة الغائبة

(١) يراجع: الإيضاح بتعليق الشيخ الصعيدي ١/ ٣٧.

(٢) روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا». مسلم- باب الحث على المبادرة بالأعمال- رقم ٣٢٨.

(٣) يراجع: مفردات القرآن- مادة دنا.

كأنها حاضرةٌ ماثلةٌ، تراها الأعينُ، وتشاهدها الأبصار، وتعمل عملَها في نفس المتلقي، فتدفعه إلى الإقبال على ما ينجيه من الفتن، والإدبار عما يوقعه فيها.

والفعل "**يَتَمَرَّغُ**" معناه يتقلّب، وفي التعبير به كناية عن غبطة الفاعل لصاحب القبر، وحبه الشديد أن يشاركه المرقد المدفون فيه، ليستريح مما يعانيه من ظلم وقهر واضطهاد وخوف، وعطف عليه الفعل "**يَقُولُ**" بالواو للإشارة إلى أنه لن يكتفي بالتمرغ الدال على رغبته الأكيدة في الموت، وإنما سيصرح بذلك قائلا: "**يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ**"، ليكون في التصريح بعد التلميح نوع من تأكيد هذه الرغبة بالفعل والقول، بجانب ما في البناء التركيبي لكلامه من مبالغة في الإعراب عن صدق رغبته، وصدورها من الأعماق، وامتلاكها كل كيانه، حيث عبر بحرف التمني المسبوق بأداة النداء والمتصل بضميره "**يَا لَيْتَنِى**"، مع الإخبار عنه بـ "**كُنْتُ**"، وفيه دلالة على "أن البلاء والشدة سيقعان حتى يكون الموت الذي هو أعظم المصائب أهونَ على المرء، فيتمنى أهون المصيبتين في اعتقاده، وذِكرُ "**الرَّجُلُ**" للغالب، وإلا فالمرأة يمكن أن تتمنى الموت لذلك أيضا، لكن لما كان الغالب أن الرجال هم المبتلون بالشدائد والنساء محجوباتٌ لا يصلين نار الفتنة خصهم، وفي تعليق تمني الموت بالمرور على القبر إشارة إلى قوة هذا التمني؛ لأن الذي يتمنى الموت بسبب الشدة التي تحصل عنده قد يذهب ذلك التمني أو يخف عند مشاهدة القبر والمقبور، فيتذكر هول المقام فيضعف تمنيه، فإذا تمادى فيه دل ذلك على تأكد أمر تلك الشدة عنده، حيث لم يصرفه ما شاهده من وحشة القبر وتذكُّر ما فيه من الأهوال عن استمراره على تمني الموت"(١).

وقوله "**وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلاَّ الْبَلاَءُ**" جملة حالية، توضح في طياتها السبب الذي يدفع الرجال إلى تمني الموت تلميحا وتصريحا، وأنه ينحصر فيما نزل

(١) ينظر: فتح الباري ١٣/ ٧٥، و شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٢/ ١٢٣ وما بعدها.

بهم من بلايا ومصائب، لا يتعدى ذلك إلى الخوف على الدين، سالكا في التعبير عن ذلك مسلك القصر الإضافي لغرض القلب، بطريق النفي والاستثناء، للإشارة إلى "أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف الدين، ويقل الاعتناء بأمره، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه و نفسه"(١).

ولما كان ذلك عند المتلقي أمرا غير مستوعب، ويمكن أن يَستغرِب حصوله ويستبعِدَه، كان قسم النبيﷺ بالذي نفسه بيده، للإعلام بخشيته ربه، وعدم إخباره بشيء من أمور الغيب إلا بعد اختصاصه به، وأمره بتبليغه للناس ليأخذوا حذرهم ويَعُدوا للأمر عدته، وتلك معان تفوت ولا يتحقق شيء منها إذا خلا الحديث من القسم بهذه الصيغة.

*****

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**»(٢).

في هذا البيان يتحدث النبيﷺ عن علامة من علامات الساعة الكبرى، وهي نزول المسيح عليه السلام من السماء إلى الأرض، وحكمه بين الناس بشريعة الإسلام، مؤكدا جواب القسم الدال على اقتراب نزوله اقترابا شديدا باللام والنون في قوله "**لَيُوشِكَنَّ**"، ومعبرا عن الفاعل بالمصدر المنسبك من أن والمضارع "**أَنْ يَنْزِلَ**" المسند إلى "**ابْنُ مَرْيَمَ**" دون الاسم الصريح؛ للإلماح إلى أنّ في نزوله إعجازا يماثل الإعجاز الكائن في خلقه وميلاده من أمٍّ بلا أب، ما يعني أنه ليس نزولا عاديا، ولكنه نزول سيترتب عليه كثير من التغييرات والمعجزات، وفي تعدية فعل النزول إلى ضمير المخاطبين بحرف الجر "**فِيكُمُ**"-

(١) فتح الباري ١٣/ ٧٥.

(٢) البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ٢٢٢٢، مسلم- باب نزول عيسى حاكما بشريعة محمد ﷺ- رقم ٤٠٦.

مع أنهم ممن لا يدركهم زمانُه- تقوية لاقتراب نزوله، وإشعار بأنه نازل لا محالة.

وفي التعبير بقوله "**حَكَمًا مُقْسِطًا**" دون نبيا مرسلا دلالةٌ على أنه يَنْزِل "حاكما بشريعة الإسلام، ولا ينزل برسالة مستقلة، وشريعة ناسخة"(١)، وإشارةٌ إلى أن من أعماله نشر العدل والقضاء على كل مظاهر الظلم والانحراف عن طريق الحق، ومن ثم فرّع عنه قولَه "**فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**" مكنيا بكسر الصليب وقتل الخنزير عن إبطال النصرانية، وتكذيب معتنقيها فيما زعموه من قتل المسيح وصلبه، ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام، لأنه الدين الحق، وترك ما هم عليه؛ لأنه من افتراءاتهم ومن مزاعمهم، يقول العلامة بدر الدين العيني: "فُتح لي هنا معنى من الفيض الإلهي، وهو أن المراد من كسر الصليب: إظهار كذب النصارى حيث ادعوا أن اليهود صلبوا عيسى عليه الصلاة والسلام على خشب، فأخبر الله تعالى في كتابه العزيز بكذبهم وافترائهم... ثم يكون كسر عيسى الصليب حين ينزل إشارة إلى كذبهم في دعواهم أنه قتل وصلب، وإلى بطلان دينهم، وأن الدين الحق هو الدين الذي هو عليه، وهو دين الإسلام، دين محمد، الذي نزل لإظهاره وإبطال بقية الأديان، بقتل النصارى واليهود، وكسر الأصنام، وقتل الخنزير، وغير ذلك"(٢)، كما كنّى بوضع الجزية عن دخول الناس جميعا في الإسلام، وأن الدين يصير واحدا، فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية، وكنّى كذلك بقوله "**وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**" عن "نزول البركات وتوالي الخيرات؛ بسبب العدل وعدم الظلم؛ وحينئذ تُخرج الأرض كنوزها، كما تقل رغبات الناس في اقتناء المال؛ لعلمهم بقرب الساعة"(٣).

---

(١) المنهاج ١/ ٢٨١.

(٢) عمدة القاري ١٨/ ١٥٢.

(٣) يراجع: فتح الباري ٦/ ٤٩١.

ومن ثم يكون قسم النبيﷺ على ذلك في قوله "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" محققا ما يلي:-

**أولا**- الدعوة إلى التمسك بدين الإسلام والموت عليه، لأنه الدين الحق وإن قل متبعوه، وما عداه هو الباطل وإن كثر معتنقوه.

**ثانيا**- تأكيد نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان، وتأكيد حكمه بشريعة الإسلام، وقيامه بكسر الصليب، وقتل الخنزير، ونشر العدل، والقضاء على الظلم، وعموم الخير، وصلاح الأحوال، بعد فسادها، تقويةً لضرورة التمسك بالإسلام والثبات عليه، مهما تغيرت الأوضاع، وتبدلت الأحوال، وانتشر الفساد، وعم الشر.

**ثالثا**- تبشير المؤمنين في آخر الزمان بانتشار الإسلام، ووراثة الأرض، والحكم بما أنزل الله، وامتلاء الأرض بالعدل بعد امتلائها بالجور والظلم، وفيه من دعوتهم إلى الثبات وشدة التمسك بالإيمان والعض على الدين بالنواجذ في زمان الفتن ما لا يخفى.

ووجه إيثار الصيغة المقسم بها على غيرها هنا كون ما يخبر به الرسولﷺ أمرا مهما، ينبغي تأكيده، لأنه من الأمور الغيبية، ولأنه يأتي في أعقاب فتن عاصفة، قد يتوقع البعض استمرارها، وعدم انكشافها، ومن الممكن أن تضعف نفوس المؤمنين فيها، فكان القسم بخالق النفوس ومالك أمرها من أجل تثبيت المؤمنين في زمان الفتن، وتبشرهم بزوالها، وشفاء نفوسهم بنزول المسيح وقتله الكفرة والظالمين.

*****

وَعَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ «**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا أَلاَ فِى اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ**

**مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»**(١).

وفي هذا البيان يجيب النبيﷺ عن سؤال وجهه إليه أبو ذرعن أمر غيبي هو حوضه وصفاته، مقسما على ما يقول بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" جريا على عادته في تأكيد ما لا يستوعبه المخاطبون من الأمور التي اختصه الله تعالى بها، ولا اطلاع لهم عليها، بجانب تشويق المخاطبين وإثارتهم إلى العمل الصالح الذي يؤهلهم للشرب من كيزان حوضه، والاستمتاع بلذيذ مائه، مؤكدا جواب القسم باللام والجملة الاسمية مع التعبير عن المسند باسم التفضيل المتعدي إلى نجوم السماء وكواكبها "**لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا**"؛ لتأكيد أن عدد أواني حوضه وأباريقه أكثرُ من عدد نجوم السماء وكواكبها، ونبه على أن ذلك أمر مقطوع به في قوله "**أَلاَ فِى اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ**" مستعملا حرف الاستفتاح، مع تخصيص الليلة المظلمة المصحية بالظرفية، والمراد بها: المظلمة الصافية التي لا قمر فيها، "لِأَنَّ النُّجُوم تُرَى فِيهَا أَكْثَر... حيث إِنَّ وُجُود الْقَمَر يَسْتُرُ كَثِيرًا مِنْ النُّجُوم"(٢)، ما يعني أنه أكثر من نجوم غيرها كذلك، وَيَرَى الْقَاضِي عِيَاض: أَنّ هَذَا إِشَارَة إِلَى كَثْرَة الْعَدَد وَغَايَته الْكَثْرَة، مِنْ بَاب قَوْلهﷺ "لَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقه"، وَهُوَ بَاب مِنْ الْمُبَالَغَة مَعْرُوف فِي الشَّرْع وَاللُّغَة، وَلَا يُعَدُّ كَذِبًا إِذَا كَانَ الْمُخْبَر عَنْهُ فِي حَيِّز الْكَثْرَة وَالْعِظَم وَمَبْلَغ الْغَايَة فِي بَابه، بِخِلَافِ مَا إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَمِثْله كَلَّمْته أَلْف مَرَّة، وَلَقِيته مِائَة كَرَّة، فَهَذَا جَائِز إِذَا كَانَ كَثِيرًا، وَإِلَّا فَلَا"(٣)، والذي أراه أنه لا مانع من أن تكون آنية الحوض وأكوابه وأباريقه أكثر من نجوم السماء وكواكبها، إذ ليس ثم مانع شرعي أو عقلي يحول دونه، كما أن قسم النبي ﷺ عليه بالذي نفسه بيده يقوي ذلك ويؤكده، بجانب أن الحديث جاء

(١) مسلم– باب إثبات حوض نبينا وصفاته– رقم ٦١٢٩.
(٢) المنهاج ١٥/ ٦٠.
(٣) السابق ٧/ ٤٩٧.

جوابا عن سؤال سائل، ومن المحتمل أن يكون قد وصل إليه خبر تلك الأعداد من أحد سمعه من رسول اللهﷺ، فأراد التثبت من صحته بسؤال النبي، فأقسمﷺ لتأكيد ما قاله سابقا، وليحسم الكلام في هذا الموضوع الذي يعد من أمور الغيب التي لا يجرؤ أحد على الكلام فيها إلا بناء على وحي وإحاطة، بالإضافة إلى ما يحمله هذا الخبر من بشريات للنفوس المتلهفة العطشى إلى سماع الأنباء التي تزيد من حماسها وإثارتها نحو مزيد من العمل الصالح، والذي يعد ورود الحوض والشرب منه، دون مزاحمة أو مدافعة في يوم الظمأ أحد أنواع الجزاء عليه.

يقول النووي "أَمَّا قَوْلهﷺ: "**آنِيَة الْجَنَّة**" فَضَبَطَهُ بَعْضهمْ بِرَفْعِ "**آنِيَة**"، وَبَعْضهمْ بِنَصْبِهَا، وَهُمَا صَحِيحَانِ، فَمَنْ رَفَعَ فَخَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف، أَيْ هِيَ آنِيَة الْجَنَّة، وَمَنْ نَصَبَ فَبِإِضْمَارِ أَعْنِي أَوْ نَحْوه"[1] وهو من الجمل التي فصلت عما قبلها لكمال الاتصال، الذي يتصل فيه الكلام اتصالا ذاتيا يغنيه عن الواصل اللفظي، كما أنه لا يخلو من إثارة المتلقي وتشويقه إلى معرفة مزيد من أوصاف هذه الأواني، وتلك الأباريق، ببيان أنها لا تشبه أكواب الدنيا وكيزانها، وتأكيد أنها كؤوس من الجنة، وضعت على الحوض ليشرب بها المؤمنون يوم القيامة شرابا طهورا. وجاء بجملة "**مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ**" وصفا لهذه الأواني لأمرين: **أولهما**– بيان أثر الشرب منها على من يحظى به يوم القيامه في أول الأمر وآخره، نافيا حصول الظمأ على وجه القطع والتأبيد، و**الآخر**– الإلماح إلى أنها لا تفرغ من المياه، وأن من يأتيها– متقدما أو متأخر– يجدها مملوءة، وكلا الأمرين مما يزيد شوق المؤمنين، ويثير أشجانهم، ويدفعهم إلى مزيد من العمل الصالح المؤهل للشرب من هذه الأواني، الذي يعد في حد ذاته نوعا من النعيم.

(١) السابق ١٥/ ٦٠.

واستكمالا لأوصاف الحوض التي أقسم عليها النبيﷺ، عبّر بقوله "**يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ**" لبيان مصدر المياه الموجودة فيه، وأنها تأتي هي الأخرى من الجنة بصورة متجددة، معبرا عن ذلك بالمضارع "**يَشْخُبُ**"، ومعناه: "يصب دائمًا متتابعًا صبًا شديدًا سريعًا"(١)، وأوثر بالاستعمال لجمعه بين الصوت والصورة، اللذين يُحدثان نوعا من النعيم السمعي والنعيم البصري، بجانب النعيم الذوقي المتمثل في مائه الأبيض الحلو، وبذا يبلغ الورود عليه قمة النعيم وذروته، وتلك عاجل بشرى المؤمن، وعبر بقوله "**مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ**"(٢) تأكيدا لما سبق ذكره، ولبيان حصول الري الدائم لمن شرب منه بأي مقدار وبأية وسيلة، إذ من الممكن للمؤمن الذي يرده أن يشرب منه بيده أو بالآنية، ومن المعلوم أن مقدار الماء المغترف باليد أقل من ماء الآنية، وبذا تصبح القطرة منه ريا دائما، يقويه عدم ذكر مقدار الشرب، وعدم الإلماح إلى كميته، وفيه من التشويق والإثارة مالا يحتاج إلى مزيد بيان.

ثم تحدث النبيﷺ عن مساحته فقال: "**عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ**" مستعملا لذلك التمثيل بواسطة الأداة الدالة على المماثلة التامة "**مِثْلُ**"، ومُقرّبا الصورةَ بقوله "**مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ**"، لبيان سعة جوانبه الأربعة، وليس من باب التحديد الدقيق، إذ من الممكن- على ما يبدو لي- أن يزيد كل قطر من أقطاره عن المساحة المذكورة، لاستيعاب من يرده من المؤمنين، وفيه نوع من تقوية الرغبة وزيادة الإثارة إلى العمل الصالح، ذلك أن المخاطب إذا علم بسعة أقطاره سعة لا حدود لها تأججت رغبته وقويت عزيمته أن يكون له مكان في هذا المساحة التي تستوعب من يرده من أي اتجاه.

(١) المفهم ١٩/ ٣٢.
(٢) المفهم ١٩/ ٣٢.

وثم رواياتٌ كثيرةٌ تتحدث عن مساحة الحوض بأقل مما ورد هنا أو أكثر، "وَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ بَيْنَ هَذَا الِاخْتِلَافِ، فَقَالَ عِيَاضٌ: هَذَا مِنْ اِخْتِلَافِ التَّقْدِيرِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَقَعْ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ فَيُعَدُّ اِضْطِرَابًا مِنْ الرُّوَاةِ، وَإِنَّمَا جَاءَ فِي أَحَادِيثَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ سَمِعُوهُ فِي مَوَاطِنَ مُخْتَلِفَةٍ، وَكَانَ النَّبِيُّﷺ يَضْرِبُ فِي كُلٍّ مِنْهَا مَثَلًا لِبُعْدِ أَقْطَارِ الْحَوْضِ وَسَعَتِهِ بِمَا يَسْنَحُ مِنْ الْعِبَارَةِ، وَيُقَرِّبُ ذَلِكَ لِلْعِلْمِ بِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، لَا عَلَى إِرَادَةِ الْمَسَافَةِ الْمُحَقَّقَةِ... وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ... وَلَيْسَ اخْتِلَافًا بَلْ كُلُّهَا تُفِيدُ أَنَّهُ كَبِيرٌ مُتَّسِعٌ مُتَبَاعِدُ الْجَوَانِبِ... وَلَعَلَّ ذِكْرَهُ لِلْجِهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ بِحَسَبِ مَنْ حَضَرَهُ مِمَّنْ يَعْرِفُ تِلْكَ الْجِهَةِ، فَيُخَاطِبُ كُلَّ قَوْمٍ بِالْجِهَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَأَجَابَ النَّوَوِيُّ مَا حَاصِلُهُ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَوَّلًا بِالْمَسَافَةِ الْيَسِيرَةِ ثُمَّ أَعْلَمَ بِالْمَسَافَةِ الطَّوِيلَةِ فَأَخْبَرَ بِهَا كَأَنَّ اللَّهَ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِاتِّسَاعِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَيَكُونُ الِاعْتِمَادُ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَى أَطْوَلِهَا مَسَافَةً"(١).

ثم ختم النبيﷺ بيانَه عن الحوض بقوله "**مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ**" مفضلا ماءه على اللبن في البياض، وعلى العسل في الحلاوة، وخصهما بالذكر دون غيرهما من الأشربة، لكونهما الأكثر فائدة، والألذ طعما، وبه يجتمع في الحوض نعيم الصورة، ونعيم السمع، ونعيم الطعم، ترغيبا في العمل من أجل وروده والشرب منه.

ووجه القسم على ذلك بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" دون غيرها ما سبق بيانه من أن تلك عادة النبيﷺ عند الحديث عن أمور الغيب، التي لا تستوعبها عقول المخاطبين، بجانب ما فيه من إثارة نفوسهم وترغيبها في إتيان العمل الصالح الذي يؤهلها للشرب منه عندما "يرده الناس وهم عطاش من طول المقام يوم القيامة... فمن شرب من شريعته في الدنيا، واهتدى بسنته،

(١) يراجع: فتح الباري ١١/ ٤٧١، تحفة الأحوذي ٦/ ٢٣٧.

واتبع آثاره، فليُبشِر أنه سيشرب من حوضه، ومن لم يكن كذلك حرم إياه والعياذ بالله"[١].

*****

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- ﷺ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ**»[٢].

وفي هذا الحديث يقسم النَّبِيّ ﷺ بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" على قيامه بنفسه بطرد أناس رغبوا في الشرب من حوضه يوم القيامة، معبرا في الجواب بالمضارع، الذي تُستحضر به الحالة الغائبة كأنها حاضرة ماثلة، لتعمل عملها في نفوس المتلقين، وتدفعهم دفعا إلى التزام ما يجنبهم ذلك المشهد المؤلم يوم القيامة، وجاء بالجواب مؤكدا باللام والنون "**لَأَذُودَنَّ**" ومتعديا إلى "**رِجَالًا**" دون غيره، لتأكيد أن الطرد والدفع سيكون لأناس لا يتوقع أحد طردهم، لما كانوا يظهرونه في الدنيا من الصلاح والتقوى، ولما كانوا يحظون به بين الناس من مكانة ومنزلة، وفسره بعضهم بأنهم "المنافقون... وقيل: المبتدعون... وقيل: المرتدون... وقيل: الذين لا سيما لهم من غير هذه الأمة"[٣]، وأرى أن التعبير يتسع ليشمل هؤلاء وغيرهم ممن خالفوا منهج النبيﷺ ولم يهتدوا بهديه، ولم يتمسكوا بشريعته من أبناء أمته، وفيه من الترغيب والترهيب ما لا يخفى.

وشبه النبيﷺ حاله وهو يطرد هؤلاء الناس من على حوضه بحال صاحب الحوض الذي يقوم بطرد الإبل الغريبة عنه، إذ لا حق لها في مائه، ولانعدام المنفعة من وراء شربها، ولكي تتمكن إبله من الشرب، من غير مزاحمةٍ أو مدافعةٍ أو ضررٍ، يُعَكِّر عليها راحة الشرب، ويحرمها لذة الاستمتاع به، وهو تشبيه هدفه تقريب المعنى إلى المخاطبين وإقناعهم بحصوله، لما فيه من الإعلام بأن المطرودين لا يشبهون الشاربين في سمتهم ولا في أفعالهم،

(١) شرح رياض الصالحين- لابن عثيمين ١/ ٢٢٣٧.
(٢) البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ٢٣٦٧.
(٣) يراجع: عمدة القاري ١٩/ ٥٦.

فهم غرباء مُنكرون، وتلك مزية من المزايا التي ذكرها الخطيب في قوله عن خصائص التشبيه ومميزاته: "ولذلك أسباب منها ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته... أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم كالانتقال من المعقول إلى المحسوس..." (١).

وبذا يتضح أن قسم النبيﷺ بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" في هذا السياق يقف وراءه ما يلي:-

**أولا**- تأكيد قيام النبيﷺ بنفسه بطرد أناس من على حوضه، وحرمانهم من وروده، والشرب منه.

**ثانيا**- ترهيب المخاطبين وتخويفهم من أن يشملهم الذود والحرمان.

**ثالثا**- إثارتهم وترغيبهم في الحرص على اتباع هدي النبيﷺ والتمسك بسنته، لكي لا يحدث لهم شيء من ذلك.

ووجه اقتضاء السياق القسم بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" استبعاد المخاطبين حصول ذلك من رسول اللهﷺ، لكونه معروفا بالرحمة واللين، مفطورا على الشفقة بأمته، "**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**"(التوبة ١٢٨)، ومن ثم كان القسم تأكيدا لحصول ذلك منه، جزاء وفاقا لمن استهان بدينه، ورفض اتباعه، وقدم شريعة الناس على شريعته، وخالف هديه، وغلبته نفسه، واتبع هواه، ففعل كل ما يغضب الله تعالى، ويغضب رسولهﷺ، ومن ثم كان قسمه بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" على قيامه بطرد من كان عبدا لنفسه من على الحوض، وحرمانه من الشرب.

*****

(١) الإيضاح بتعليق الشيخ الصعيدي ٣/ ٩ وما بعدها.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِى قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلاً فَقَالَ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» قَالَ قُلْنَا نَعَمْ. فَقَالَ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فَقُلْنَا نَعَمْ. فَقَالَ: «وَالَّذِى **نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّى لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِى أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ**»[(١)].

في هذا البيان يتحدث النبيﷺ عن نسبة المسلمين في أهل الجنة، تبشيرا لأتباعه، وحثا لهم على التقرب إلى الله تعالى بعمل مزيد من الصالحات، التي تؤهلهم للجنة، التي يتسع نصيب المسلمين فيها ليصل إلى النصف، ففيه كما يقول القاضي عياض "تبشير لآحاد الأمة بدخولها؛ لأن ظن الواحد بدخولها مع كثرة داخليها من الأمة أجدر من ظنه دخولها مع قلة داخليها منهم"[(٢)]، بادئا حديثه إليهم بالاستفهام، الذي يهز النفس، ويوقظ العقل، ويلفت الانتباه إلى ما يتضمنه الكلام من معان، يريد الرسولﷺ أن تلقى مزيدا من اهتمام المخاطب وعنايته، كما يوجهه من خلال الاستفهام إلى التقاط قصد الكلام ومغزاه وتحويله إلى واقع عملي في حياته، بجانب ما فيه من "تقرير البشارة وتثبيتها في أذهان المتلقين"[(٣)]، وتدرّجَ النبيﷺ بهم من الربع إلى الثلث إلى النصف، ولم يخبرهم بالنصف من أول الأمر؛ ليكون "ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به، وأيضًا له حكمة أخرى وهي أنهم في كل مرة كانوا يشكرون الله ويكبرونه ويحمدونه على إعطائهم ذلك، كما يدل عليه قوله: "فكبرنا" أي: عظمنا ذلك

(١) البخاري- كتاب بدء الوحي- رقم ٦٥٢٨، مسلم- باب كَوْنِ هَذِهِ الأُمَّةِ نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ- رقم ٥٥٢.

(٢) إكمال المعلم ١/ ٣٩٢.

(٣) يراجع: فتح الباري ١١/ ٣٨٧- بتصرف.

وقلنا: الله أكبر، ففي التكرار رحمة بهم وحملٌ لهم على تجديد شكر الله وتكبيره وحمده على كثرة نعمه"[1].

ثم أقسمﷺ قائلا "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" على رجائه أن يكون المسلمون نصف أهل الجنة، مؤكدا جواب قسمه بإنّ والجملة الاسمية واللام الداخلة على المسند "**إِنِّى لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**" ومعبرا بفعل الرجاء الدال على شديد طمعه، وعظيم أمله، ووصوله إلى درجة اليقين في تحقيق الله تعالى رغبته بأن يكون أتباعه نصف أهل الجنة كما أخبرهم، لأن الرجاء في كلامهﷺ معناه الجزم والبشارة بتحقيق المرجو، ولكنه يعبر به تأدبا مع ربه ومولاه.

وجاء بقوله "**وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ...**" لتوضيح ذلك وبيان كيفية حصوله، مبتدئا بواو الاستئناف من أجل التنبيه إلى مضمونه، ومعبرا باسم الإشارة الذي للبعيد "**ذَاكَ**" لتعظيم المشار إليه وتفخيمه، بإنزاله منزلة بعيد المكان، عظيم المنال، ومستعملا أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، لنفي دخول الجنة عن كل الناس، ثم إثباته لأصحاب النفوس المسلمة دون غيرهم، وبه يُقصر دخولُ الجنة على المسلمين من كل أمة، ومن المعلوم أن عدد من أسلموا مع رسل الله كانوا دائما أقل بكثير من عدد المشركين، ما يترتب عليه أن تكون فرصة أمة النبي وأتباعه في الجنة أكبر من فرصة غيرهم، لأن عددَهم أضعافُ عدد المسلمين من كل أمة.

وزاد هذا المعنى تأكيدا وتثبيتا من خلال التشبيه في قوله "**وَمَا أَنْتُمْ فِى أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ**"، حيث شبه حال المسلمين في أهل الشرك من حيث التميز وقلة العدد بحال الشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو حال الشعرة السوداء في الثور الأحمر، تشبيها تمثليا يتأكد به كيف يمكن أن يصل المسلمون– مع قلة عددهم–

(١) شرح صحيح البخاري للسفيري ٤٠/ ١٦.

إلى نصف أهل الجنة كما رجا رسول اللهﷺ وطمع وبشّر، لأنهم إذا كانوا يمثلون الشعرة البيضاء أو الشعرة السوداء بالنسبة لعدد الكافرين من الناس فهذا يعني كثرة عدد الكافرين المعذبين في النار وقلة عدد المسلمين، وإذا كان عدد مسلمي هذه الأمة من أتباع الرسولﷺ أكبر من عدد مسلمي الأمم السابقة فهذا يعني ارتفاع نصيب المسلمين في الجنة ليزيد عن الربع، ويزيد عن الثلث، ليصل إلى النصف، كما قال رسول اللهﷺ .

وبعد ما سبق بيانُه يبدو لي أن قول النبيﷺ "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" قسما على ما سبق في هذا السياق، يترك في نفس المتلقي الآثار التالية:-

**أولا**- تأكيد كون المسلمين من أتباع الرسولﷺ يمثلون نصف من يدخل الجنة على أقل تقدير، إذ من الممكن أن يتفضل الله تعالى بزيادة هذه النسبة، جريا على العادة في إعطاء رسول اللهﷺ ما يسأل وزيادة.

**ثانيا**- تبشير المسلمين بزيادة فرصة دخولهم الجنة، لاتساع نصيبهم فيها، وترغيبهم في تزكية النفس، وترويضها على الالتزام بتعاليم الإسلام، لما لها من أثر كبير في ذلك، ولعل هذا ما استدعى قول النبيﷺ "**وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ**"، ويمكن أن يكون أحد أوجه إيثار القسم بصيغته التي جاء عليها.

**ثالثا**- وهو خاص برسول اللهﷺ إذ يبدو لي أن القسم بالصيغة التي عبر فيها النبي باسمه الشريف هنا فيه إلماح إلى تشريف الله تعالى لشخصه، وإعظامه لقدره، بتحقيق رجائه، وزيادة نصيب أمته في الجنة، لتقر عينُه، وتهنأ نفسُه، ويستريح بالُه، ويعظم نعيمُه النفسي والبدني، ولم لا؟ وقد أقسم الله تعالى على إرضائه، فقال "وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى"(الضحى ١- ٥).

**وبهذا الملمح أختم دراستي، التي أرجو الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها طلاب العلم بعامة، وطلاب البلاغة بخاصة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.**

**وصلِّ اللهم على سيدنا محمد**
**وعلى آله وصحبه والتابعين.**

*****

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد السادات... وبعد،،

فقد انتهت هذه الدراسة التي جاءت في مقدمة، وأربعة مطالب، وارتكزت على واحد وعشرين حديثا من الصحيحين، إلى النتائج والتوصيات التالية:-

**أولا- النتائج:-**

**الأولى**- أن قسم النبيﷺ "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" وكذلك "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" كان أسلوبا مهيمنا في الأحاديث التي ارتكزت عليها الدراسة وغيرها، كما كان ذا أثر كبير في تحقيق المقاصد التي ورد البيان النبوي الشريف من أجل تصحيحها، أو الإخبار بها، أو الحث عليها، أو الترهيب من مخالفتها، أو غير ذلك من الأغراض والأهداف التي بينتها الدراسة.

**الثانية**- أن مقاصد النبي ﷺ من قسمه بهاتين الصيغتين تتنوع بين ما هو آت:-

أ- حرصه ﷺ على تأكيد المقسم عليه في نفس المتلقي، حتى ينزل عنده المنزل اللائق به.

ب- إزالة ما يحيط بالمقسم عليه من غرابة، بسبب عدم اعتياد الناس له، أو كونه من أمور الغيب التي لا يحيط المتلقي بها علما، أو لأن الخبر غير متوقع حصوله على الوجه الذي تم القسم عليه.

ج- تصحيح كثير من المفاهيم، التي استقرت في أذهان الناس، وأُشربت بها طباعُهم، واستمرأتها نفوسُهم، لأنهم توارثوها عن آبائهم، أو لشيوعها في المجتمعات قبل بعث الرسول ﷺ، مما يجعل تصحيحها وإقناع الناس بخطئها يستدعي نوعا من التأكيد والإقناع، الذي كان القسم بمن بيده نفوس الخلق بعامة، ونفس الرسول ﷺ بخاصة أحد الأساليب التي ساعدت في تصحيح تلك الأخطاء، وأدت إلى تغييرها.

د- الإعراب عن غضب النبي ﷺ من تصرفات بعض المسلمين، وأفعالهم التي تخالف قواعد الدين، والتي ينطلقون فيها من هوى النفس، أو سوء الفهم الذي لا يليق بأمثالهم.

هـ- بجانب ما في القسم بعامة من تهيئة المتلقي وتشويقه وإثارة تطلعه إلى ترقب المقسم عليه، حتى إذا ورد ثبت في نفسه، وتمكن منها فضل تمكن.

**الثالثة**- أن صيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" وكذلك "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" - بما توحيان به من تفخيم المقسم به وتعظيمه، ببيان طلاقة قدرته، ووصولها إلى نفس الإنسان، أيا كان- تترك في نفس المتلقي أثرا قويا، يدفعه دفعا إلى امتثال المقسم عليه، والقيام به، مهما كلفه ذلك؛ خوفا من عقاب ربه ورغبة في ثوابه، مما يجعل الترغيب والترهيب مقصودا لازما من مقاصد القسم بهذه الصيغة.

**الرابعة**- تلحظ الدراسة أن النبيﷺ كان يقسم بصيغة "**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**" في أغلب الأمر عند الإخبار بالأمور الغيبية التي لا يمكن للبشر أن يحيطوا بها، للإلماح إلى أن ذلك مما اختصه الله تعالى، وشرفة بالإحاطة به علما، وكان يقسم بصيغة "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**" غالبا فيما سوى ذلك.

**الخامسة**- كان للقسم بهاتين الصيغتين الصدارة والهيمنة في الأحاديث التي وردتا فيها، وكان ما يسبقهما من بيان أو أساليب- على قلتها- من باب التمهيد للقسم بأيهما، والتوطئة لمجيئه.

**السادسة**- كان للقسم بالصيغتين اللتين قام البحث لتتبعهما الأثر الكبير والرئيس في تحقيق الغرض المنصوب له البيان، وآزرهما بعضُ الأساليب التي جاء أغلبها ضمن جوابيهما، مثل القصر بطريق النفي والاستثناء- التوكيد بإن واللام والجملة الاسمية وقد- التنكير لا سيما في مقام الإخبار بالغيب، الشرط بالأدوات الدالة على ندرة فعل الشرط أو امتناعه- التعبير بالمضارع لاستحضار الصور المستغربة أو الغائبة ومعايشتها- ومن الصور البيانية يأتي التشبيه لما له من خاصية الإيضاح المساعدة على

الإقناع، ومن فنون البديع يكثر الطباق والمقابلة، لما لهما من خاصية زيادة حسن الحسن وتقبيح القبيح.

**ثانيا- التوصيات:-**

**الأولى**- توصي الدراسة العاملين في ميدان البحث البلاغي بإفراد بحوث تتناول صيغ القسم النبوي الأخرى تناولا مستقلا، لما يمتاز به من الإحاطة بمواضع القسم، وإبراز سياقاته، والتعمق في أسراره، كما أنه يكشف عن جوانب جديدة تضاف إلى الجوانب التي كشفت عنها الدراسات التي تعرضت لموضوع القسم النبوي بصفة عامة.

**الثانية**- أما عن الأعمال التي تبيّن للدراسة أن مجال البحث البلاغي في حاجة إليها، فهي:

- البناء التركيبي للجمل الواقعة بعد الأمر والنهي في الحديث النبوي.
- مواضع اقتران الجملة الحالية بالواو ومواضع عدم اقترانها بها... دراسة بلاغية تطبيقية.
- قول النبيﷺ "**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**" مواقعه وأسراره.

**والحمد للّه في الأولى والآخرة.**

## قائمة المصادر والمراجع


- أساليب الإنشاء الطلبي و طرق إفادتها غير معانيها الحقيقية د. محمود موسى حمدان– مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد الثاني عشر.
- أسرار البلاغة– عبدالقاهر الجرجاني– تحقيق محمود شاكر– مطبعة المدن– نشر الخانجي.
- الاستفهام القرآنى دقائق ورقائق– د. محمود توفيق سعد– مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية– العدد التاسع.
- إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض – الموقع الإلكتروني للمكتبة الشاملة.
- الإيضاح لتلخيص المفتاح– للخطيب القزويني– بتعليق الشيخ عبدالمتعال الصعيدي– طبعة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م– مكتبة الآداب– مصر.
- بغية الإيضاح– للشيخ عبدالمتعال الصعيدي– مكتبة الآداب– مصر.
- التبيان في أقسام القرآن– ابن قم الجوزية– دار الفكر.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي– عبدالرحمن المباركافوري– بدون
- الجنى الداني في حروف المعاني لأبي القاسم المرادي– تحقيق/ فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل– الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م– دار الآفاق الجديدة– بيروت.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبدالعظيم المطعني– الأولى– مكتبة وهبة.
- دراسات منهجية في علم البديع– د. الشحات محمد أبوستيت– الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م– دار خفاجي للطباعة والنشر– القليوبية– مصر.
- دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى– الطبعة الثانية– ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧م – مكتبة وهبة.

- دلائل الإعجاز- عبدالقاهر الجرجاني- تحقيق محمود شاكر- الطبعة الثالثة- ١٤١٣هـ/١٩٩٢م- مطبعة المدني- السعودية.
- شرح صحيح البخاري- أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي- تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم- الثانية- مكتبة الرشد- السعودية.
- شرح صحيح البخاري- شمس الدين السفيري- بدون.
- صحيح البخاري - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م - دار الشعب - القاهرة.
- صحيح مسلم- دار الجيل- بيروت.
- صورة الأمر والنهى في الذكر الحكيم د. محمود توفيق سعد- الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م - مطبعة الأمانة.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري- بدر الدين العيني الحنفي- بدون.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري- ابن حجر العسقلاني - طبعة ١٣٧٩هـ- دار المعرفة - بيروت.
- الفروق اللغوية- أبوهلال العسكري- بدون.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير- للمناوي- الطبعة الأولى - ١٤١٥هـ/١٩٩٤م- دار الكتب العلمية- بيروت.
- كشف المشكل من الصحيحين لابن الجوزي- تحقيق علي حسين البواب- دار الوطن- الرياض.
- لسان العرب لابن منظور- الطبعة الأولى- دار صادر- بيروت.
- مختار الصحاح- محمد بن أبي بكر الرازي- تحقيق محمود خاطر- مكتبة لبنان- بيروت.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- تحقيق د. محمد أحمد خلف الله- مكتبة الأنجلو.

- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم- أبو العبَّاس أحمَدُ الأنصاريُّ القرطبيُّ ، بدون.
- مقاييس اللغة- لأحمد بن فارس- تحقيق عبدالسلام هارون- طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م- نشر اتحاد الكتاب العرب.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- للنووي- الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - دار إحياء التراث العربي- بيروت .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- لبرهان الدين البقاعي- تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي- طبعة ١٤١٥هـ- دار الكتب العلمية- بيروت.


*****

# فهرس الموضوعات


| م | الموضوع | رقم الصحيفة |
|---|---|---|
| ١ | **المقدمة.** | ١٥١ |
| ٢ | **المطلب الأول- موقع القسم وتأثيره في مقام العبادات.** | ١٥٤ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث الصلاة. | ١٥٤ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث الزكاة. | ١٥٩ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث الصيام. | ١٦٤ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث الجهاد. | ١٧٣ |
| ٣ | **المطلب الثاني- موقع القسم وتأثيره في مقام الغضب لله.** | ١٨٠ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث المخزومية. | ١٨٠ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث ابن اللتبية. | ١٨٣ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث دعوة الرجل زوجه إلى فراشها. | ١٨٨ |
| ٤ | **المطلب الثالث- موقع القسم وتأثيره في مقام تصحيح المفاهيم والأخطاء.** | ١٩٣ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده" | ١٩٣ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" | ١٩٥ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب...." | ١٩٦ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لو لم تذنبوا لذهب الله بكم...." | ١٩٩ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث "...إن لو تدومون على ما تكونون عندي..." | ٢٠٢ |
| - | موقع القسم وتأثيره في حديث "...إن الشملة لتلتهب عليه نارا...." | ٢٠٥ |

| | | |
|---|---|---|
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا..." | ٢٠٧ |
| ٥ | **المطلب الربع– موقع القسم وتأثيره في مقام الإخبار بالغيب.** | ٢١٢ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني..." | ٢١٢ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ولا يدري المقتول على أي شيء قتل" | ٢١٥ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول..." | ٢١٧ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا..." | ٢٢٠ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها..." | ٢٢٢ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...لأذودن رجالا عن حوضي..." | ٢٢٧ |
| – | موقع القسم وتأثيره في حديث "...إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة..." | ٢٢٩ |
| ٦ | **خاتمة الدراسة.** | ٢٣٢ |
| ٧ | **ثبت بالمصادر والمراجع.** | ٢٣٥ |
| ٨ | **فهرس الموضوعات.** | ٢٣٨ |


*****

**تم بحمد الله تعالى وتوفيقه.**